

طبعة محدودة

الطائر الحائر

جميلة العلايلي

حقوق الطبع والنشر محفوظة



التركة الأدبية لجميلة العلايلي

www.gamilaelalaily.com

لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام استرجاع أو نقله بأي شكل أو بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو عن طريق التصوير أو التسجيل أو غير ذلك دون إذن خطي مسبق من الناشر

الطائر الحائر



جميلة العلايلي


أم كلثوم
جميلة العلايلي

عن جميلة العلايلي

جميلة العلايلي، ولدت في مدينة المنصورة على ضفاف النيل، حيث تشبعت روحها بعذوبة الماء وبهاء الطبيعة، نشأت في كنف عائلة متوسطة الحال، محافظة على التقاليد الأصيلة، إلا أن عقلها كان طليقًا منذ الطفولة، يتساءل ويتأمل، ويرفض القيود التي تفرضها الأعراف على المرأة.

بدأت تراسل مي، فتدور بينهما أحاديث ورسائل مليئة بالمعاني العميقة والأسئلة الإنسانية الكبرى، فتعلقت بها وتبنت روحها الفكرية، وتعلمت منها كيف يكون الأدب نافذة للحرية. كانت مي بمثابة المعلمة والملهمة التي أيقظت فيها شغف الكتابة.

في تلك الفترة، كانت هدى شعراوي، الزعيمة النسائية والمناصرة لقضايا المرأة، قد شقت طريقها كصوتٍ يدعو إلى تحرير المرأة في مصر، وإلى منحها حقوقها في العمل والمشاركة المجتمعية. وجدت جميلة في هدى مثالاً للمرأة المستنيرة المتمردة على القيود.

انضمت جميلة إلى جماعة "أبولو" الأدبية التي أسسها الشاعر أحمد زكي أبو شادي، فكانت من أوائل الشاعرات اللواتي انضممن إلى هذا الصرح الأدبي، الذي مثّل ثورةً في الشعر العربي، جامعًا شعراء الرومانسية ومتبنيّي الحداثة.

كانت جميلة، بفضل روحها المفعمة بالحرية، مؤسسةً للعديد من الجمعيات الثقافية والاجتماعية، فأسست "جامعة أدباء العروبة" بهدف دعم الأدباء الشباب ونشر نتاجهم الأدبي، وأسهمت في إنشاء "مجمع الأدب العربي" الذي أصبح منبرًا للإبداع الأدبي.

وفي ميدان الشعر، أصدرت جميلة ثلاثة دواوين شعرية تميزت كل منها بأسلوب مختلف. ديوانها الأول، "صدى أحلامي"، الذي صدر في عام ١٩٣٦، جاء حاملًا بين طياته مزيجًا من التأملات الرومانسية في الحب والجمال والحياة.

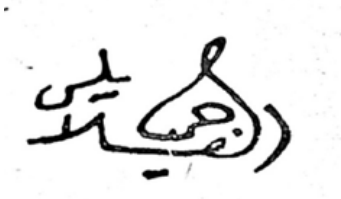
لم تقتصر إسهامات جميلة على الشعر فحسب، بل امتدت إلى الرواية، إذ كتبت عددًا من الروايات التي عبرت من خلالها عن قضايا اجتماعية وروحية. يمكن تصنيف رواياتها حسب الموضوعات التي تناولتها: فقد كتبت عن الروحانية والتصوف، والمرأة والمجتمع، والحب والطبيعة.

وفي مجال التأملات، ألفت جميلة كتبًا من نوع خاص، تمزج فيها بين السرد والروحانية، مثل "أنا وولدي" و"أرواح تتآلف"، حيث تتناول قضايا فلسفية وإنسانية، وتغوص في عمق النفس البشرية بحثًا عن المعاني الخالدة للوجود.

أما عن تأثيرها، فقد مثلت جميلة العلايلي أحد الأصوات الأدبية الرائدة في مصر والوطن العربي، إذ كانت من أوائل النساء اللواتي واجهن المجتمع بأدبهن، وحملت على عاتقها دورًا في تحرير صوت المرأة ودفعه ليصبح مؤثرًا في المشهد الثقافي.

وفي حياتها اللاحقة، اعتزلت جميلة الحياة العامة تدريجيًا، حيث انسحبت من المجتمع وانقطعت عن الحوارات الأدبية، واتجهت نحو التأمل والتصوف، حيث ركزت على الكتابة الروحية التي تهدف للارتقاء بالنفس وإيجاد السلام الداخلي.

في عام ١٩٩١، رحلت جميلة العلايلي عن الحياة، تاركةً وراءها إرثًا أدبيًا وروحانيًا عظيمًا، وما زالت أعمالها شاهدة على تجربة أدبية فريدة لامرأة امتلكت شجاعة الكلمة وصدق الروح، ليبقى صوتها في الأدب العربي خالدًا.



الطائر الحائر

جميلة العلايلي

١٩٣٥

تحية

أهلا "جميلة "بالحياة كما رأت عيناك
فيها معان تستطاب فأيها معناك؟
حللت ألوان المحبة والجمال الآسر
وشرحت قصة طائر بين المفاتن حائر
ووصفت أطياف التناجي والعذاب القاسي
ومظاهر الحرمان والآلام بين الناس
هذي هي الدنيا كما صورتها للغافل
لهفى على الزهر الجميل من الهجير القاتل!
لا يسأل الفنان عن آرائه ورجائه
بل يسأل الفنان عن إعجازه بأدائه
وأراك فاتنة العواطف بالخيال الساحر
أنفاس شاعرة لها أنفاس وحي الشاعر

أحمد زكي أبو شادي

الإهداء

إلى...

أبناء النور والحرية

ودعاة الاصلاح وأعداء العبودية

وربات الفن اللائي يوحين إلى كل معنى سام

تمهيد

زارتني منذ أيام صديقة تحبني حبا جما: زارتني وقد رسم الحزن العميق على محياها سمات الألم الدفين، فاضطرني ذلك إلى تعرف دخيلة نفسها وإن كانت هي بعد أن هدأت بجواري وأنست بي لم تر غضاضة في أن تبثني خبيئة نفسها عل في البث ترفيها وارتياحا

وقبل أن أفضي إليك بحديث الصديقة، أريد أن أصور لك في غير مبالغة صورتها لتبدو أمامك القصة في ضوء أوفى، وصراحة أبهى، وإني لأستميحها العذر في اظهار سرها الدفين وعصارة قلبها الأليم وشفيعي لديها تلبية نداء الفن الذي وقفت حياتي، وجهودي عليه

وان ثقتي برحابة صدرها، وسماحة خلقها لكفيلة لي بأن أصرح بحديثها دون خشية عليها أو حذر منها

والآن وقبل أن أخلق دنيا القصة أحب أن أصورلك الصديقة بطلتها. هي هادئة وديعة، وتشملها عاطفة شفافة بريئة وهي إلى جانب ذلك محبة ولوعة، حساسة القلب، يقظة الروح، سليمة العاطفة، ولكنها لا تصطنع الحب ولا تتكلفه، أعني أنها تحب كل ما يروقها في أي كائن وكأن في هذا الكائن ناحية من نواحي نفسها وإن روحها لتصبو إلى استقراء أسرار الكون على تباين مظاهره، على حين أنها لم تخط ربيع الحياة، وان كانت قد هدفت إلى الكهولة، بيقظة عقلها، ونضوج تفكيرها، أما جمالها فان عارفيها يعتقدون أن الرقة حبتها سرها،

والأنوثة الجذابة تقمصت روحها، والفتنة شملت بسماتها، والسحر فاض من كل جانب فيها. رغم أن حدود الجمال لديها لا تتعدي القياس المألوف ولست أميل إلى تفصيل الجمال حتى يبدو أمامك في الزى على آخر طراز من الجمال، فلكل إمرىء زى من الجمال يألفه، وصورة من الاشكال يهيم بها، ويصبو إليها ولكني أقفك من جمال الصديقة على اللباب، وهذا هو السر المخبوء وراءها. السر الذي يحلو لك تعرفه واستكناهه أما عاطفتها، فكالنبع يفيض من جميع نواحيها، وأنها لشقية بهاته العاطفة الشاملة الغامضة، فاذا ما رزقت نعمة القرب منها يوما فقد تدرك أنها محبة محبوبة، أما أنها محبوبة فهذا ما لاشك فيه، وأما أنها محبة فهذا ما تأمله وتسعى إليه ولقد طافت بروحها في سماء الأحلام وهامت بكثير ممن هم وراء سماء الخيال، ولكنه الهيام الذي لا يدرك، الهيام الذي يواتيها عن طريق فن تألفه كالموسيقي أو التصوير أو الشعر أو الأدب، ولعل هذا الحب الفني يملك عليها أمرها فلم يترك قلبها يحوم في فضاء احلام العذارى كما أنه حملها على الاعتقاد بأن من الطيش أن تندفع المرأة وراء حب مادي، لا يسمو بالنفس أو يمنحها قوة تدفعها إلى النعيم الدائم والخلد المقيم وهي مشغوفة بأن تفكر في طلاقة، وتكافح في حرية حتى تبلغ مثلها الفني الرفيع، غير آبهة بنقد جاهل أو لوم متجن، وهي طفلة كبيرة تجنح دائما إلى المرح والحزن معا فقد ورثت عن أمها الحزن الدفين والعطف الرزين والخدر الكامل والطهر الشامل

وورثت عن أبيها حب المرح والحياة والكبرياء والأنفة وقد تعجب كيف تجتمع الكبرياء إلى السذاجة والهدوء إلى الثورة والتحفظ إلى الدعابة والثورة إلى اللين، ويحسن أن تعلم أنها على جانب لا يستهان به

من الثقافة الروحية وأن هذا الجانب الروحي يفوق علمها المكسوب وهي ذكية الفؤاد ناضجة الفكر فسيحة الخيال قوية العاطفة.

نشأت في بيئة مصرية صحيحة وفي بلدة يقولون عنها إنها مدينة العلم والنور، ولكنها ألفت الهدوء وأحبت الوحدة. كما عودتها أمها، ولقد أهاب بها هذا الهدوء وهاته الوحدة إلى الفكر والخيال. الخيال الذي حملها إلى الطبيعة، والطبيعة التي دفعتها إلى حب الفن العتيد حباً ملك عليها حواسها حتى أصبح وكأنه شيء محسوس ملموس ترغب فيه وتنشده، وقد سطا هذا الحب على الروح المادية فيها فقتلها فتعلقت بأذيال الجمال والحرية وان اعتقادها في الزواج ليخالف ما تواضع عليه الفتيات جميعا فهي لا تنظر إلى الزوج من حيث غناه أو فقره ولكنها تطمع في أن يحبها الحب كله، تطمع في أن يكون ذكي العقل كامل الرجولة قوي الحجة حساس المشاعر قادراً على أن يهيء مستقبله كما ترجو هي له وما ترجو له إلا أن يكون أعظم رجال العالمين وهي تعتقد أن في قدرة المرأة أن تخلق الرجل خلقاً جديداً، بل أنه ليحلو لها أن تكافح في سبيل تحقيق مثله و إلا فما وظيفة المرأة في المجتمع البشري إذا كانت حياتها لا تتميز عن حياة الحيوان الولود؟

يجب أن يكون لها رسالة خالدة تؤديها عن طريق نفسها ان استطاعت أو عن طريق الرجل الذي قدر له أن يشاركها الحياة وعلى هذا الأمل ومن أجله تعيش في محيط هذه الحياة.

أما بعد: فتلك هي صورة الصديقة بطلة "الطائر الحائر" ولعلها أروح مما ذكرت، فقلبها المليء بأسرار الكون لا يبيح لأي إنسان أن يسبر كنهه أو يدرك مداه.

وحسب القارئ العزيز تعريفاً ببطلة القصة، هذا الرسم الطائر بما فيه من خطوط وألوان وظلال.

جميلة

١

قالت صديقتي:

دعتني صديقة أعرف بميولي، وأحب إلى نفسي من غيرها إلى نزهة خلوية وكانت طبيعتي في ذلك الحين خامدة بها عزوف عن المرح والعمل لذلك لم ار غضاضة في مرافقتها تلبية لمشيئتها فعسى أن أجد في اجتلاء المناظر ومشاهدة مباهج الطبيعة الفاتنة ما يرفه عن نفسي ويجنح بها إلى حرية الفكر. ولقد كان بصحبتنا في هذه النزهة أخوها وخطيبته ذهبنا جميعاً إلى حديقة غناء اختارها الأخ لقلة اختلاف الناس إليها كثيراً ومع أنها كانت أشبه بالمهجورة فقد كانت على احسن طراز للحدائق الغناء وكم في الحدائق من معان للجمال والسحر والفتنه! فالطبيعة وحدها على ما أظن. هي مصدر الفن وحسبها أن توحي لنا بما وراء الجمال الذي لا يدرك ولا يحد. الجمال الخالد فالسماء التي تعلو الطبيعة غيرها في كل مكان فهي تنقل الينا رسالة مليئة بالاسرار ولو أنهالت اسرارها مطراً لحاكت هاته الأمطار. قطرات تبدو كأنها لاشيء ولكنها تملأ الأنهار لتروي كل ظامئ من الناس والحيوان والأطيار

إن الطبيعة معجزه الله بلا ريب. معجزة صامته الحانها ومعانيها في أرج نسيمها، وفي عطر ورودها ولعلها تحيات مليئة بالبهجة والمسرة

والأمل ترف علينا في شبه نسمات سيقت من قبل الأله الجليل لتزيد في نشوة الضاحك المجدود وترفه عن البائس المنكود.

أجل ترفه عنه بهذه الأشجار التي انكشفت عنها الطبيعة بين ساعة فرح تحت ضوء الشمس البهيج وبين ساعة حزن في كنف الظلام فجاء بعضه مزهوا بأغصانه وثماره وبعضه يماثل الحرمان في عمره ومآله.

وهكذا لبثنا بعض الوقت نمرح غير عابثين. ونتسامر في أدب رزين، ولقد أحسست أنا وصديقتي برغبة في الانفراد تختلج بصدر الخطيبين فأفسحنا لهما المكان حتى يتمتعا بنسمات الحب السني وليحتفلا على انفراد بساعات من عمر الخطوبة الهنيء. ورغبت إلى صديقتي أن نختفي لنمرح كما يحلو لنا في طلاقة الطفولة التي فاتنا عمرها ومازلنا نحن إليها ونرغب فيها. وهناك في كنف بعض الأشجار وتحت ظلالها المتناسقة في تآلف جميل بدأنا نتلهى بالتندر والمداعبة آناً وبالتحدث آناً آخر ولكن سرعان ما هرول الينا الخطيبان كعصفورين وديعين على وجه كل منهما ظاهرة تخالف الأخرى، لقد كانت الخطيبة كثيرة المرح لينة الدعابة تلتمع في عينيها أضواء الحب المتقد ويرف على شفتيها سحر بسمة تكاد تنطق بعذوبة الأمل الجميل وهي فوق ذلك على حظ كبير من سحر الأنوثة وجمالها كما أن السذاجة كانت تعلو جبينها وتبدو في ألفاظها لأنها لم تنل من التعليم قسطاً وفيراً

أما خطيبها فكان على عكسها، فقد نال من التعليم أقصى ما يناله الشاب في مصر، حتى غدا ناضج العقل معتداً بنفسه لا يلفت ظاهره عيون الحسان اللائي يألفن جمال الرجل وهو سريع اللفتة والنظرة هادئ النفس، دائم الصمت والتفكير، وقلما يؤخذ بظواهر الأشياء،

ولكنه عذب النكتة حلو الحديث، يحب الطبيعة ويتحدث دائماً عن مفاتنها بلباقة فائقة، وكم كان يتمني أن يكون فنانا كما يعترف، فيصور كل ما يحلو له، ولكن الحياة كانت عليه جد ضنينة، فطغت على مواهبه في بدئها على حد تعبيره، وصرفته مرغماً عن نواحي الحياة الفنية إلى أضوائها المادية، وها هو اليوم يعاني من كبت أحاسيسه ألماً مبرحاً لا قبل له على احتماله، ولعل هذه الظاهرة الأليمة التي تملك عليه حسه هي من قبل حرمانه الفني، ولم أجد مندوحة من تعرف ما صعب على ادراكه عن طريق الأخت فعند ما خلوت بها سألتها

ما الذي حمل شقيقك على مجانبة خطيبته مع أنك قلت على ما أذكر مرة أنه خطبها عن طريق الحب؟ فكيف تعرف بها؟

فتلفتت قبل أن تجيبني يمنة ويسرة كأنها تخشى اباحة سر أو شبهه، وبصوت خفيض كالحذرة قالت

في مساء يوم كان أخي في طريقه إلى منزله وعلى ما يذكر كان الظلام شاملا والدنيا يكتنفها سحر الهدوء وبينما هو جاد في طريقه حملت إليه أجنحة ذلك الهدوء صدى موسيقي سحرية خافتة حملته على مواصلة السير متتبعاً مصدره حتى بلغ نافذة ينبعث منها ضوء خفيف له روعة فنية، استوقفه هذا المشهد فظل واقفاً ساهما يستمع إلى الموسيقي بقلب ذاهل ولولا الشرطي الذي نبهه لنسي نفسه ومازلت اذكر صورته المهيبة في هذه الليلة عندما دخل علينا فقد بدا أمامي كأنه ضيف غريب يطوي بين جوانحه سراً غامضا ومنذ هاته الليلة تغيرت أحواله وأحب الخلو بنفسه ومع أني كنت أرى فى عينه ما يضطرم في صدره

ولكني كنت لا أجرؤ على التدخل في شئونه لأنه لم يعودني ذلك، وأخيراً طلب إلى أمه أن تخطب له "بنت فلان" أعني هذه الفتاة. وتم له ما شاء وكأنه امتلك ناصية الكون فكان أبداً فرحا راضيا عن دنياه، وذات مساء ذهبنا جميعا لزيارة الخطيبة وكانت هذه أول مرة يلقاها الخطيب فيها بعد اعلان الخطوبه وطلب منها اخى أن تعزف له لحنا فأبت زاعمه أنها لا تجيد العزف فظن اخى ذلك التمنع منها خجلا وحياء فألح وألحف وظل بها حتى حملها على العزف. وما كادت تداعب أوتار المعزف بأناملها حتى تملكنا شبه ملل. لأن عزفها كان اشبه بنقر النحاس وفى هاته اللحظه جاءتها زائرة فانتشت العروس وقدمتها لنا قائلة)معلمة الموسيقى(وطلبت منها أن تعزف لحناً ترضية للخطيب. وما كادت اصابعها تداعب أوتار المعزف حتى انتقلت بنا جميعاً إلى عالم سحري فاتن واستطاعت بمهارتها ان تداعب قلوبنا جميعاً وبدل ان يستمع أخي استأذن وانصرف وحدة وقد لمحت شبه غمامه انتشرت على وجهه لم افهم معناها. ومن هذا التاريخ عاد اخي غير مرح كما كان من قبل، وتضاءلت مشاعره وتلاشت عواطفه أو كادت، ولزم الصمت الأليم وبات لا يحدثنا عن الزواج والعرس كما كان يفعل من قبل.

بدت الحقيقة امامي رهيبه فاستويت بعد ان كنت مضطجعة على العشب وقدتها إلى مكان آخر بعيد ثم همست في اذنها: عله احبها من اجل الموسيقى. فلما اصطدم بالحقيقة تضاءل حبه لها ولعلها جادة في التعليم على ما أظن وغدا تكون عند حسن ظنه بها وخير له ان يفكر عن طريق عقله وقلبه ولا يترك حرية التصرف لخياله. وهنا لمحتهما

مقبلين، فتضاحكا كأننا نتسامر في حديث لا شأن لهما به، واستويت مسرعة أرحب بمقدم الخطيبة ولكنها قبل أن تجيبني خاطبني هو

لم تركتنا هناك وجئت إلى هنا؟

قلت

لنترك لكما مجال الحرية واحسبنا مخطئين في ان نرافقكما في وقت انتما احق فيه بالخلوة والانفراد. فعمر الخطوبة كما يقولون اهنأ الأعمار. ومن العبث ان يسهو الخطيبان عنه حتى يمر فلا ينالا منه ما يحلو لهما من هناءة

ولم أكد انتهي من قولي حتى نظر إلي نظرة عميقة فهمت منها بعض ما يعتلج بصدره وقد تغافل عن دعابة الخطيبة التي لمست كتفه في رفق ونظرت إليه في حنان ثم ابتسمت في براءة وخاطبته

إن الحق ما نطقت فلعلها مخطوبة و...

فقاطعها موجها الحديث إلي

أحقاً ذلك؟

فقلت في حياء

كلا

وكأن هذا النفي قد أرضاه فابتسم في غبطة ثم نظر إلي نظرة أخرى فهمت منها ما يضمره ولا يقدر على التفوه به وإن عين الرجل كثيراً

ما تكون أسبق إلى التعبير من لسانه وابتعد عنا قليلا فظنناه يريد أن يتمشى وحده ولكنه عاد وبيده زهرة بيضاء وفي ابتسامة غامضة قدمها إلي فابتسمت كذلك في غموض وقلت

أيخجل الرجل، هأنا ذا لأول مرة أعرف ذلك! أو تريد أن أكون واسطة بينك وبين عروسك؟

ثم مددت يدي بالزهرة إليها. فقال

بل اقدمها إليك لتصفيها

قلت

انظر إلى عروسك تكشف لك ما خبأته الزهرة! إنها تحاكيها

قال

لسنا في مجال مناظرة ولكننا في مجال مواجهة

قلت

أوه فاتني أنها زهرة خالية من العطر وعروسك وردة لها عطر ولعلك خشيت أن يسري العطر من الورد إلى الزهرة إذا لامسه وأنت تريد أن يكون العطر لك وحدك أليس كذلك؟

ونظرت إليه كأني أقول له: صدقني!

قال

ليكن ذلك أو غيره ولكني أرجو!

قلت

أن تحفظ لك وردتك عبيرها

فاغتاظ مني كما بدا لي وقال بصوت متواضع

يا آنستي

فابتسمت وقلت

لا تغارى! أتحسبني كذلك؟ لا تظن!

فأسند ظهره على جذع شجرة وارفة كانت بالقرب منه ونظر محلقاً في الفضاء ثم رد نظره عاجلا وقال

بودي أن أكون طائراً

وقبل أن أجيبه قالت الخطيبة

لو كنت طائرا كما تروم لرجوت ان تكون إنسانا

فلم يأبه لردها وظل ناظرا إلي مترقباً كلامي. قلت وأنا أنظر إلى الخطيبة وأوجه إليها الحديث

وهكذا كل ممنوع محبوب

ثم التفت إليه وقلت

وردتك تعرف الحقائق فارتشف من منهلها لتصل إلى محط الحكمة عن طريقها

فبدت على وجهه علائم عدم الارتياح وقال بصوت خفيض

وردتي. وردتي.

فنظرت إلى العروس وخاطبتها

الا تجيبين؟ انه يناديك

فتخضب وجهها ومالت في دل فاتن ثم نظرت إليه في استحياء يكاد يقتلها، ولكنه تجاهل نظراتها وراح ينظر بعيدا كالطفل الذي يبحث عن نقطة ارتكاز السماء وكنت قد وليت وجهي وحاولت النظر بعيدا حيال خاطر طاف برأسي ولكنه انتشلني من خاطري بقوله

أعتقد أن المرأة تحب الطيور كحب الرجل للزهور والورود

قلت وقد نسيت نفسي

المرأة تحب الطير، لأنه قادر على تبليغ الرسالة العاطفية عن الزهر والرجل يحب الزهر لأنه يألف صمت المرأة وحياءها

قال

ولكن هل كل الطيور محبوبة

قلت

قد تكون كلها محبوبة لأن لكل فتاة مزاجا خاصا، فأنا مثلا أحب الطائر الغريد الذي يألف الفضاء الوسيع فيظل محلقا هائما لا يهبط إلى الارض، اما الطائر الذي يهبط ففي يقيني انه اضعف الطيور

فبدل ان يجيبني اشار بيده إلى السماء وغمغم بكلمات خافتة لم ادركها، وتركنا وسار وحيدا في طريق معوج مليء بالحصباء ودقاق الحصا فاستوقفته عروسه وقالت

هذه الطريق وعرة

فأجابها دون أن يلتفت إليها

إنه ليحلو لي أن أقطع الطريق الوعرة لأعرف معنى الحياة

قلت وأنا ما زلت في موقفي

ولكن الحياة بقرب عروسك أروع مما عداها

قال

حسبك

وتخلص في غير لطف من ذراع خطيبته وعدا بعيدا، فاقتربت من الخطيبة وهمست في أذنها

ألا تتبعين خطيبك، إنه يدعوك في حياء

فتبعته دون كلمة تتعثر في ثوب الخجل والخيلاء، ولكنها عادت مسرعة والدمع يترقرق في مآقيها قلت

ماذا بك؟

قالت

انه غاضب يأبى مكالمتي

فقالت شقيقته عجباً

علك أثرته عليك

قالت

لا، جئته فوجدته مطأطئ الرأس ولما خاطبته تأفف مني ولم يجب

قالت شقيقته

هيا نذهب إليه لنتعرف الحقيقة

ولما انتهينا إليه لم يأبه، ودنونا منه فلم يلتفت وسألناه فلم يفه وتأوه في سكون، قلت وأنا أحاول أن أكون كالطفلة البلهاء

في عينك دموع أتبكي؟ عجباً

وقاطعتني شقيقته وخطيبته

أمريض أنت؟

قال

ليتني

وهو يحدق نظره فيّ قلت

إذن علام؟

قال

سلي الطبيعة تنبيك

قلت

ولكني أسالك

وواريت نفسي خلف بسمة مغتصبة ثم استطردت

كان في مقدورك ألا تصحبنا إن كان ثمت أفكار تلهيك وفي مقدورنا أن ننسحب ونترك لك هاته الطبيعة الفاتنة لتنعم بها بقرب عروسك الساحرة

فتأفف وقال

أما يكفيك؟

قلت

إن عيبي هو صراحتي ولا قدرة لي على ملافاة هذا العيب خاصة في مثل هذه الساعة، وأنت شبه حزين وعروسك من فرط الحزن عليك تكاد تبكي وشقيقتك من هول اللوعة قد خانها النطق وما أنا إلا معبرة عنهما لا أقل ولا أكثر، وأن الرحمة تقضي بأن ترعاهما وقد جئت بهما لترفه عنهما متاعب الحياة المنزلية الشاقة الخانقة فلماذا تبدل كرمك سخطا وإنه ليجمل بك أن تلاحظ عواطف الأنوثة الرحيمة

فتكلف بسمة وقال

أو تعرفين العاطفة

قلت

بلا ريب

قال

ليتك

قلت

هل أخطأك الحزن أم أخطأك النظر؟ واحد من اثنين، أما أن يكون نظرك مخطئا فخاطبتني أو خاطرك طاف بها وظننتني إياها

ثم حنوت على العروس وربت على كتفها وقد كانت تائهة فيما لا أعلمه ولا أدريه ثم قلت

رفهي عنه أو لم تسمعي كيف يناجيك ويستعطفك عن طريق غيرك جففي دموعه بيديك الناعمتين فأنه يود عطفك

فتعطفت عليه في وداعة وطوقت عنقه بذراعيها العاجيتين ونظرت إليه في ابتهال ولكنه صدها عنه بلا شفقه، وغمامه الحزن تعلو وجهه دون كلمه، ثم اسرع الخطى وذهب إلى حيث لا ندرى.

اخذتنا الحيرة في أمره فالشقيقة مابين مشفقة ولائمة والعروس من فرط الحزن والالم تكاد لا تعرف كيف تتحدث عنه أو إليه أما أنا فأدركت بعض ما يختفي وراء صدره ولكني كنت حائرة في أمره وخشيت أن تلمح على العروس أو الشقيقة ظواهر الحيرة والاضطراب، فتعمدت التجاهل والثبات ورحت أسال العروس في رفق، هل أسأت إليه أم تدللت عليه. فقالت لم يحدث ذلك ولن يحدث لأني أحبه فبلغ اعترافها من قلبي مكانا عميقا وحز في نفسي ووددت لو أفدى اعترافها بدمى فداء لتحقيق أملها وأهبنا بها أن تذهب إليه فعساه أن يهدأ ولكن سرعان ما عادت إلينا وقد فاض معين حزنها أكثر مما كان، ثم ذهبت الشقيقه ورجعت وكان نصيبها من الهم نصيب عروسه أو يزيد وأخيراً ألحت على أن أذهب إليه فعساه أن يخجل ويحترم رغبتي فيصرح بما في نفسه أو يعود إلى مرحه واقترحت عليهما أن يصحباني ولكنهما أبتا مدعيتين أن احترامه لشخصي قد يؤثر فيه، وقد يكون عنده ما لا يريد أن يصرح به لهما خوفاً عليهما من الحزن واحتراماً لرغبتهما

ذهبت إليه ولم اكد أقترب منه حتى هالني جلسته على هيئة حزينة، وقد ارتسم على وجهه صورة الاضطرام المكبوت ولما لمحني حاول أن يواري حزنه وتكلف الهدوء ونظر إلي باسما دون كلمة ففاجأته

لقد جئت هنا الآن تحقيقاً لرغبة عروسك وأختك ورحمة بهما، فأن الحزن لك كاد أن يهد قواهما، ماذا دهاك على غير انتظار وأنت خير مثال للعقل والرصانة

فوقف واجماً، وقبض على غصن قريب منه وداعبه متلهياً به عني على ما أظن قلت

شكرا لك، هكذا يكون الوفاء، ألا هيا معي إليهما

فلم يتحرك وظل صامتاً، وبدت على شفتيه بسمة يموج فيها شعور ثائر فاستطردت

تقدم

فابتسم بسمة عريضة ارتفع صوته في نهايتها على نغم مرح وقال

هه أظننتنى قد وقفت رغبة أن أعود معك اليهما؟

قلت

بلا ريب!

قال

لا بل أيقظني العبير لما دنا فانتشيت!

عرفت من عينيه ما يرمي إليه ولكني تجاهلت وقلت

ولكن هذا المكان أشبه ما يكون بالغابة فلا زهر فيها ولا ورود ولا رياحين بل كل ما فيها طيور تهيم هنا وهناك

قال

ولذا فضلتها عن سواها

قلت

ولم اذن تحلم بالعطر؟

قال

لأني أرغب فيه

قلت

ولم تركته؟

قال بصوت يحفه العجب

أنا! لقد عكست الآية أيحدث الجفاء من رجل قوي قادر، إن جفاء الرجولة قسوة لا مبرر لها، أما جفاء الأنوثة ففيه دلال مستحب يشفع له

فولي وجهه عني شطر طيور كانت تحوم حول شجرة بالقرب منا، وقال بصوت مرتجف خفيض

أما وإنك تحجبين الحقيقة بنقاب الغموض، فلتدعيني هنا اذن وحدي

وأشار بيده في بطء إلى مكانه وحملق بنظره حيث الطيور فاغتصبت بسمة وقلت

أظنك ترغب في مشاطرة الطيور الحائرة

فاتجه نحوى بكليته وردد

نعم نعم لأني واحد منهم

قلت في عجب

أطائر حائر أنت؟

فلوح بيده مؤكداً وقال بصوت غير رقيق

طائر حائر هو أنذا

قلت في هدوء

اخترت لنفسك هذا اللقب فأنا به من الآن أناديك

قال

أكون سعيداً لو فعلت

قلت

اسمع اذن يا طائرنا الحائر هناك حمامتك الوديعة تنتظرك فتعال إليها لتطيب لك الحياة

قال

الطائر لا يفهم لغة البشر، واحد من اثنين إما أن تخاطبيني بلغتي أو تدعيني أخاطبك بلغتك

قلت

مادامت اللغة تؤدي إلى الغاية المرجوة فلا مانع من استعمالها

قال

حسنا! اذن تعالي نتفاهم

قلت

ولكني جاهلة لأني لم أعرف لغة الطير فحدثني بلغتي

قال

هذا عيبك، تدركين وتتجاهلين كلانا حائر هكذا يبدو لي، ولكن حيرتك مركزة على الرغبة وحيرتي مركزة على

الاضطرار وشتان ما بين الحيرتين، أنا أحار في تفهم العالم لأني لا افهمه وأنت تحارين بين ما تريدينه لنفسك وما يريده القضاء لك

قلت

هذا عيبي وعيبك أنت، أنك تخلط بين الخيال والحقيقة فمثلا تخاطب عروسك عن طريقي وتخاطبني عن طريق عروسك

فتأفف وقال

لقد أطلت فيما لا أرجوه إن القلب الذي أرجوه يتجنبني أفهمت؟

قلت

يا لظلمك إنها لم تضن عليك بما ترجو فلا تقس وهبها تدللت عليك، أو ليس هذا هو حافز الرغبة فيك؟ إن فلسفة الأنوثة تقضي على المرأة ألا تستسلم استسلاماً مطلقاً بل تحرص على أن تأخذ اليوم أكثر مما تدع لتعطي في الغداة أكثر مما أخذت

فنظر إلي نظرة عميقة وبدا في عينه التماع شعور ثائر صامت ثم أشار لي بالجلوس فأبيت أن ألبي الرغبة ولكيلا أدع له مجالا في الاسترسال قلت

لو أنك كنت قد خرجت معنا غير راض عن نفسك لاغتفرنا لك هذا الحزن ولالتمسنا له تعليلا مريحا أما وأنك قد خرجت معنا خلي النفس إلا من سرورك فلا شك أن حزنك وليد الساعة

قال

هو ذاك

قلت

ولم؟

قال

ليس لي بذلك علم

قلت

عله الطرب! الطرب أشجاك فأبكاك!

قال

ليت ذلك

قلت

وماذا يعوزك أكثر من حب عروسك اللطيفة

فتأوه وقال

لا تحاولى قتلي

قلت

أو تشك في حبها ما أقساك!

قال

لا يهمني ذلك

قلت

أتتعمد الخيال؟ إياك!

ثم لزمت الجد ورجوت أن يسرع اليهما وأبديت أسفي لطول المقام، ولكنه أبى وأصر على الانفراد بنفسه حتى أجيبه على سؤاله وأدركت من عينيه ما يجيش في صدره وخشيت أن يضطرني إلى هتك كرامته فانسحبت وكأني لم أسمع له قولا ثم تركته وأسرعت إليهما فوجدتهما على حال من القلق الأليم، وقد اضطررت أن أحجب عنهما الحقيقة لأحملهما على الهدوء الفكري وصحبتهما إليه وأنا أقول في طريقنا إليه

إنه يخلو بنفسه لأنه يشاء أن يكون شاعرا وظاهرة الشاعر شذوذه احيانا وميله إلى الانفراد بنفسه ليكيف ذهنه ومشاعره بجمال ما يبدو امامه

ولما اجتمعنا به ظلت أداعب هذه وأضاحك تلك وأهيب به إلى مكالمتهما حتى استطعت أن أعيد إلى سمائهم ظل المرح الهارب ولكنه كان يفر من الضحك ويواري نظراته خلف فكره الشارد ويعمد إلى التجول بين الرياض النضرة وقبل ان يتخطى الوقت عتبة باب المساء رأينا ان نرجع حينما رأيناه بشعر بدوار في رأسه ولكنه أبى إلا إن يودعني وحاولت ان اصرفه عن عزمه فأبى في هدوء ولما وصلنا إلى المنزل عرضت عليهم أن يستريحوا من عناء الطريق فأبى واصطحبهما وانصرف بعد ان حياني تحية محتشمة ظاهرها الجفاء.

٢

خلوت بنفسي وتركت خيالي يجوب آفاق الآباد وأنا اشبه ما يكون باغفاءة الحالم، فرأيت فيما رأيت من اطياف، طيف الخطيب الذي أسميته كما شاء الطائر الحائر رأيته كما شاء ان أراه ورأيت بونا شاسعا بين صورتين، بين الصورة التي يريدني ان أنظر إليها والصورة التي اراها بعيني رأسي، صورته وهو حائر كما يظن وصورته وهو غادر كما اظن وشتان ما بين الصورتين وتساءلت، أيمكن الفرد ان يكيف مشاعره كما يهوي، أم ترى الأحياء تسير خلف اهواء القوة اللامعة غير المدركة مجبولة؟ وافترت شفتا هاته القوة الهائلة عن بسمة عريضة فهمت منها اننا جميعاً عبيد المطامع تواتينا من قبل الغيب المجهول، وبجانب طيف الخطيب تجلت لي صورة الخطيبة فرأيتها واقفة على باب الأمل البهيج تحلم بمستقبلها الهنيء، وتتخيل ايامها المقبلة على أحسن ما تتمناه، بينما القدر ينسج لها وشاحا غامضا قد يلقيه عليها وشاحا لم توحد ألوانه ولست أدري إن كان ناعم الملمس أو خشنه يصلح لتجملها أو لا يصلح ولكن الخطيبة تعتقد أنه وشاح السعادة والهناءة وحيال هذا الخيال انتابني شعور غامض وساورني هم لا أعرف سبيله ولا مأتاه ووددت لو اتيح لي من القوة ما يؤهلني للانتقام من القدر الذي يجمع في دقيقة بين قلبين على غير ارتقاب ويفرق في لحظة ما يجمع بعد طول غياب ووددت، ولكن هيهات! ولم تمر أيام قلائل حتى جاءتني الصديقة حزينة كئيبة وراحت تقص على انباء اخيها، وكيف جنح إلى العزلة وحاولت ان تثبت إلى من

وراء حديثهما ما يكنه لي صدر شقيقها حريصة على الا تنوه على علاقته بالخطيبة وقالت فيما قالت انه يريد ان يتحرر من هاته الخطوبة، لأن عواطفه لم توافق عواطف الخطيبة وقد ندم على انه اقدم على الخطوبة دون ان يتأكد من توافق ميولهما ورغباتهما، وانه سار خلف خيال خاطئ.

كانت تتحدث بصوت حزين، وكنت استمع إليها والبسمة لم تفارق شفتي بسمة السخرية والعجب حتى لمحت الصديقة بسمتي الفاترة التي لم تألفها مني، فبادرتني

لماذا تبسمين، أهناك ما يدعوك لهاته البسمة الفاترة؟

قلت

اجل تصرف أخيك، لقد جري خلف خيال خاطئ كما تقولين، ونسي انه قادم على دنيا جديدة واقعية لا خيال فيها، لست افهم معنى لتصرفه هذا، وعلام يندم؟ اكان يظن أن من تجيد الموسيقي تجيد سياسة الحياة أو أنها من الجمال الخلقي والنفسي والجسمي بمكان؟ قد تكون ولكنها ليست قاعدة على كل حال، قد تطهر الموسيقي النفوس البشرية، لست انكر، ولكنها ليست دليلا على كمالها أو نقصها. الا يصح ان يلعب الموسيقي بالنار كلعبه بالأوتار؟ يخيل إلي ان كل تصرفات أخيك غير مركزة على الفكر الصحيح، وانه دائما يسري وراء خيال خاطئ، خطيبته لا عيب فيها، ذهبية الشعر، زرقاء العينين، ذات بشرة بيضاء، ولها قوام

أهيف غض رشيقة رقيقة وديعة طيبة ساذجة طاهرة وأنا أعتقد ان هاته الصفات كفيلة بأن تحببه إذا ألفها في الحياة وأنا واثقة أن أخاك سوف يندم في الغداة إذا تخلي عنها اليوم، لأن الحقيقة لا تلمس بالعين المجردة عن الخيال إلا إذا فقدناها وهو اليوم أسير أخيلة غير مدركة، سوف يتألم عندما تجر عليها ذيلها ويواجه الواقع

كانت تستمع إلي واطياف الغموض والحيرة والألم تبدو ملتمعة في مآقيها، وشاءت أن تدافع عن اخيها، ولكن رهبة الواقع خانتها فهزت رأسها في غير اكتراث، كأن كلامي لم ينل من قلبها مناله، وودعتني على أمل أن نلتقي قريبا.

وظللت طوال الليل أطوف بذهني عند محط الطائر الحائر، راسمة لكل صورة معنى ولكل معنى قصة وصحوت مبكرة استلهم الفجر حقائق الوجود الذي يطوي قي برديه نفوساً ما لها على نفسها من سلطان، هاته النفوس التي تعتقد أنها على كل شيء قديرة وهي أضعف من الضعف لأنها تعجز عن مكافحة أبسط النظم والعادات غير المشروعة وترضخ لأحكام ليس لها من الحق نصيب، وتسير تحت تأثير شهواتها ومطامعها دون مكافحة وما هاته الرغبات والشهوات إلا رسول الفناء الذاتي الذي يصل بين الفرد والمجتمع، وعلى غير عادة جاءني رسول الصديقة يحمل إلي بطاقة ترجو فيها أن أزورها لأن مرضا قد طرأ عليها، فأسلمها إلى الفراش ولم يسعني ازاء رجائها الا أن أسرع إلى عيادتها، والاطمئنان على حالها، فلما جئتها وجدتها حقا أشبه ما تكون بالمريضة فبدأتها في دعابة

أو هكذا يجمل المرض الوجوه؟

فابتسمت ابتسامة مرة ثم قالت بعد أن عانقتني عناقاً أحسست فيه بحرارة تجوب في صدرها

عل الجمال واتاني عندما رأيتك

ثم قادتني إلى مخدعها وما كدت أقترب منه حتى رأيت الأخ في شبه نوم عميق يتأوه بين الفينة والفينة بحرارة وبين يديه ورقة فهمت من ظهرها أنها صورة ولكن وجهها مرتكز على صدره فلم أتبينها ودنوت منه فهالنى ظاهرة المرض البادية عليه، فقد اتشح وجهه بنقاب من الشحوب، وهزل جسمه هزالا باديا وكأنه مريض منذ اعوام، ولم استطع كبح جماح عواطفي فأشحت بوجهي بعيداً، حتى أواري مدامعي التي غامت بها عيناى

وفتح المريض عينيه، رافعاً الصورة اليهما في شغف، وقبلها في لهفة حارة وقبل أن اتكلم نظر إلي وقد تهلل وجهه بابتسامة طليقة وقال

ها أنت؟

قلت

نعم أأنت مريض، أو هكذا على عجل تمرض؟

قال

ليته مرض وراءه أمل، ولكنه عذاب وراء فناء

قلت وأنا أحاول أن اخلط بين الكلام والضحك الهادئ

يا لرجولة أنت محط القوة تستسلم للاوهام

قال

يا لرجولة القوية ازاء الأنوثة الضعيفة!

قلت

ولكن الأنوثة لا تستسلم لأضعاف ما ينوء به حمل الرجل من امراض واهوال ومصائب وخطوب جسام، ولعل المرأة كالنسمة فبقدر ما هي هينة لينة فيها سر الحياة

قال

اجل! وبقدر ما فيها من عبير شذي فيها سر زعاف وعلى جناحيها يرتفع العالم نحو العلا أو يهبط إلى الفناء

قلت

ولكنها لا تخزج سمها إلا اذا اضطرت للدفاع عن نفسها، وبذلك تستطيع ان تسميه بالسم المرغوب

قال

ولكن!

ثم صمت، قلت

وما يتبع ولكن

قال

تفهمين وتعلمين وتتجاهلين!

قلت

افهم انك مريض واعلم انك ستعافي، واجهل تشخيص مرضك

فتورد وجهه الشاحب وهز رأسه في صمت ثم قال بصوت خفيض

مغرية خطيرة!

قلت

ولكنه خطر لا يؤذيك

قال

إنه خطر اهون منه الموت العاجل

قلت

شوهتني أأكون وباء؟

قال

ليتك

قلت

اتظن أكثر

قال

وليت ما وراء أكثر يصور حقيقتك! ولو كان لكان لي معك شأن آخر

قلت

ولم أسمينا كل ما لا يدرك غموضا، ولم تعلقنا بأذيال هذا الغموض و نحن نقضي عمرنا مؤملين راجين على ضوء هذا الغموض، فأنا صحيفة من صحف هذا الغموض و لست وحدى اذ كل امرأة لها صحيفة، وكذلك كل رجل وتستطيع ان تشبه الغموض بكتاب صنفه الخالق الجليل بلغة غير مدركة لكل مخلوق صحيفة، وعبثا ما تحاوله المرأة من استقراء صحيفة الرجل، أو يحاوله الرجل من استقراء صحيفة المرأة

ثم صمت وأنا شبه محتدة، فقال

وهل يحول الغموض عن ادراك الواقع؟

قلت

لا! ولكن قد يتخذ الغموض وسيلة أحيانا للهروب من الواقع إذ كان لا يتحمل

قال

الآن فهمت

قلت

أتمني

قال

أنت!

قلت

هو أنا

قال

غموض مطلق

قلت

يحلو لي

قال

تعذبينني

قلت

حاشا لله

قال

إذن

قلت

استودعك الله

وتهيأت للانصراف ولكنه استوقفني وقال

إذن أرجوك

فأومأت برأسي دون كلمة ليتابع قوله، فأردف

أن تترفقي بي، ألا تسمعين صراخ قلبي، وضجيج روحي، آه لو استطعت أن أنتشل قلبي من بين جنبي، لو استطعت لحطمته تحطيما لأستريح وأريحك

قلت

ويحك

قال

أتخافين علي؟

قلت

الحياة تدعوك ويهمني ألا تفقد الحياة رجلا عاملا نابهاً مثلك

فقبض على يدي في شبه عنف، وناداني باسمى المجرد في غير رفق وقال

لا تحاولى التعنت مرضاة لغريزتك

قلت وأنا أسحب يدي من بين يديه في هدوء

ليس ثمت ما يدعو للتعنت، ولكن مرضك على ما يبدو شبه وهم وأخشى أن يؤذيك

قال

أظنك أطلت

قلت في مكوثي

أعتذر

وهممت بالانصراف، فدمعت عيناه، وارتعشت شفتاه، وأشار بيده في بطء ليوحي إلي بالبقاء، قلت

ولكنك تعب والحديث قد يضرك

فلم يجب وظلت دموعه تنهال في غير تمهل، وكأنه خجل من نفسه فهز رأسه في إباء وقال

إن ظاهرة المرض لا تبدو إلا في دموعي وأخشي أن يكون ذلك من ضعف أعصاب النظر

فتغافلت وقلت

ولم لا تكون دموعك من تأثير خواطر قلبك على عروسك لم تأتك اليوم... علها في طريقها

وقبل أن أتمم حديثي، استلقي في فراشه وغطي وجهه بالملاءة وشعرت من حركات جسمه الخفيفة التي تهز الملاءة أن عواطفه خانته ولم يستطيع صدها، فترفقت به وخشيت أن ينالني ما يناله، فرفعت عنه الغطاء وربت على خده فى رفق وقلت

ارحم نفسك

فلم يفتح عينيه ولم يتحرك، وعدت إلى ترفقي وظللت أربت على خده وأدلك جبينه بماء الكلونيا إذ بدا لي أن الاغماء قد أصابه وأخيرا تحرك ورفع جفنيه في بطء فقلت

ارحم نفسك

فأجابني بصوت خفيض

رحمتك هي الرحمة الكبرى

وقفت برهة، وأنا أكاد احترق من فرط ما بي محاولة أن أكون قوية، مقاومة جهدي هاته الثورة الكامنة في صدري، ولكن العاطفة لها

حكمها الجائر، فقد خانتني في النهاية، ولم استطع كبحها فقلت بصوت مرتعش؟

حي لو لم تشأ لنفسك من قبل مشيئة قبل هاته الرغبة لكان لي معك شأن آخر، ولما ترددت في ترضيتك ولكن ما ذنبي والقضاء قضي لك بغير ما تريد، وقد يكون قضي لي بذلك أتظن انه من الهين علي ان أراك على هذه الصورة الأليمة العليلة؟ ولكن الواجب

ثم صمت برهة لأستعيد قواي واستطردت

أجل الواجب يقضي علي ألا اجاوبك عاطفة بعاطفة إذا كان ثمت عاطفة وانتني، على أنني من القوة بمكان لذا استطعت أن أصارع ذلك التيار وقد صرعته

ثم ابتسمت في دعابة، وقلت

أنا قوية، فكن قويا مثلي على الأقل

فضحك ساخرا وردد هازئا

الواجب. الواجب! أي واجب هذا يا فتاتي؟ أي واجب يقضي بقتل قلب محب وروح واله، بل يقضي بقتل رجل كان في مقدوره أن يكون من خير الناس للناس، وابر الناس بالناس انك تلبسين مسوح الراهبة لتجيزي لنفسك حق النصح، من أباح لك ارتداء لباس الحكمة على حين كل خالجة فيك تحمل من الخطر ما تحمل؟ ها ها ها

الواجب، الواجب، فوق الحب حكمة تتنزل من عند مليكة جديدة، أو آلهة للشرائع العاطفة هه ومن أنت، ومن تكونين؟ ألست إنسانه، لك ما لها من قلب، وروح، وشعور، واحساس؟ لا، انك لست إنسانه إنك حجر صلد، ولكن من الحجارة لما تنفجر منه العواطف، وإن منها لما يشقق فتخرج منه الرحمة، وان منها لما يهبط من خشية الحب وسطوته، إذن من أنت؟ أنا أجهلك بقدر ما أعرفك، من أنت أيتها الشيطان الذي يتراءى في مسوح الملائكة الأبار؟ هه الواجب، من علمك العزف على أوتار القلوب، على حين صوتك يرتل أنغام القنوط، من علمك اللعب بالنار، فيتطاير الشرر ويحرق ألف قلب بار، من علمك ومن علمك؟

ثم تخاذلت قواه، وتلعثم لسانه فلم يستطع ان يتكلم، وكنت واقفة في مكاني لا أجرؤ على النطق ولا أقوي على الكلام ولكني استطعت بعد جهاد أن أتكلم بصوت خفيض كأنه أنات من وراء الأبعاد السحيقة، فقلت

علمني ربي فأحسن تعليمي، ولم أخضع لتعليم البشر، وان ظنوني عبدة تعاليمهم علمني ربي عن طريق إحساسي ومشاعري ووجداني قيمة الحياة، وما وراء هاته الحياة على حين قد شئتم ان ترضخوا لتعاليم الحياة، فحالت تعاليمها بينكم وبين تعرف ما وراءها. علمني ربي التمرد، وعلمتكم الحياة الرضوخ! ولكني أتمرد على الباطل حتى ولو أحلته نفسي وقد أظلم نفسي أحيانا أو أعذبها في سبيل الحق تحقيقا لمثلي

الأعلى، أما أنتم فقد تعلمتم الخنوع والاستسلام عابثين بالحقائق في سبيل الأحلام، هذا موقفك مني، وموقفي منك، إنك تريد أن تحطم قلبا لتحي قلبك وتقتل نفسا لتسعد نفسك أنت الرجل وأنا أحاول قتل قلبي في سبيل احياء قلب آخر وأشقي نفسي لأسعد غيري شاعرة أن في ذلك لذة كبرى وراحة نفسية عظمى رغم ما أعانيه من الألم والحرمان. هأنت تخضع للعاطفة وتستسلم لأمرها في ذلة وانكسار، وهأنذا أصارعها فأصرعها وأغالبها فأغلبها. كل ذلك في سبيل الواجب ان المعروف عن المرأة أنها عبدة لعواطفها وهذا وهم باطل إذا لمسنا قلب المرأة. إن المرأة لا تسير خلف عواطفها إلا إذا سلبتها الحياة منذ الصغر سلاح الكبرياء الذي تستطيع ان تصارع به أهواء الحياة إذا صارعتها، فأنا وأنت وعروسك نمثل الإنسانية بأسرها. هذا يتعذب في سبيل ذاك، إذا كان كبير النفس نبيل القلب كريم الروح، وذاك يضحي نفسه في سبيل هذا لأنه يرقب العالم من وراء الأفلاك على ضوء قلبه فيحس أن عظمة قلبه وقدرة نفسه فوق قدرة هاته العوالم، وثالث يقيم لنقسه ذكرى على حساب أناس آخرين، ولا حيلة له غير هذا التصرف الشائن لأن الحياة سلبته قوة نفسه، وكلنا خادع مخدوع

وهنا بلغ مني الألم غايته، فهدأت قليلا ثم استطردت

لك دينك ولي دين، أنت مستسلم وأنا متمردة، والاستسلام والتمرد لا يتفقان أنت تألف الحياة في دنيا أخيلتك وحدها

قانعاً بقوت ذهنك وأنا لا يرضيني غير التجوال في العالم هنا وهناك، أسير على الربا المعطار وعلى الارض القفار، وفي الصحراء الوحشة غير عابئة بما ألاقيه في طريقي من مخاوف وأهوال، مادام ضوء الله العالي، ومثل الحق الأعلى رائدي أسبح في الفضاء بروحي، واجوب العالم بذهني، وشتان ما بين الحياتين

وهنا قاطعني وكأن كبرياء الرجولة سلطت أشعتها على هيكله، فبدا أمامي رهيباً

والآن؟

قلت

والآن يسرني أنك عدت إلى نفسك، راجية ألا تعود إلى هتك عواطف أية فتاة وقتل مواهبها مرضاة لك، وتزويق الباطل تحقيقا لعاطفة هوجاء تثور في اليوم لتخمد في الغد ولا تحرم الحق لتنال ما تشتهيه

فاعتدل في جلسته، وبصوت فيه نغم الحزم الرزين قال

في مقدوري أن أكون كما تريدين أن أكون

واعتدلت كذلك في جلستي وبصوت غير لين قلت

أريدك أن تكون زوجا كريماً مخلصاً نبيلا مفكراً حليما، تقيس الحياة بمقياس عقلك وقلبك معاً

فابتسم في طلاقة وقال

هذا وأكثر منه

قلت دون أن ابتسم

وأن تحرص على حبها وتعمل على إسعادها وتقف حياتك من أجلها، وانها لخليقة بكل خير

قال

ومن ينكر؟ ولكن أشعريني السعادة فوجهي الخطاب إلى نفسك فلست غائبة

قلت

أما زلت تحلم؟ لقد ظننت انك سموت معي إلى دنيا الواقع أنا أعني عروسك، اما أنا فغض الطرف عني.

فتجهم وجهه ثم نظر إلي نظرة عميقة وقال

ولكني لا أحب إلاك

فازداد ألمي ولكني واريته وقلت في هدوء فكر

أنك الآن مريض أو شبه ذلك ولا أحب أن أستغل ضعفك إحياء لحبي، فأني اقدر العواطف قبل وقوعها وأفكر في الحياة بفكر أوسع مما تظن. خطيبتك خيالها لا يبرح

ضميري، ولست من الأثرة والظلم والضعة بمكان حتى أقتلها في سبيل عاطفة ترضيني أو تظن ان السعادة تطيب لي على حين ان هناك قلبا يئن ويتوجع من ورائي؟ لا لا لكنت كبرى الآثمات

فقاطعني

يا الله! إنك تخلطين دائما بين الواقع والخيال. وتشوهين الحقيقة مرضاة لجحودك يا ذات القلب الخرب

قلت في هوادة

أو هكذا تظن؟ إن قلبي أعرف بالحب منك ولكنه حب غير ما ألفه الناس جميعا، إنه لا ينتمي إلى رغبة أو متعة أو أمل محدود، إنه حب وكفي، وبحسبي ان ادركت الله عن طريقه وأحببت أهلي وأقاربي بوساطته و وتعلمت الفنون، وألفت الجمال على ضوئه، فأنا احب بكل ما في من قوة حبا شاملا سامياً غير محدود، حباً يسمو على النظم ولكنه لا يعصف بها، والحب عندي ظاهرة من ظواهر الحق والفضيلة والجمال والصدق، فأنا لا أعرف روعة الشيء الا إذا شف عن دخيلته، وأنا إذ أميل بفطرتي إلى ناحية من نواحي نفسي فأنما أعني الحق ولا يستهويني الجمال أو الحسن الا إذا اتصل بالطبيعة في أي كائن، فكل من تلاعبت الصناعة بذاته فقد خلع جلباب الجمال عنه فأنت ترى ان قوة الحب فوق قوتي، ولست من الكذب بمكان حتى أدعي

أنني اقوي من قوة الحب، فأنا محبة، أما أني محبوبة فلا أعلم، ولكني قانعة بأن احب وحدي هذا الحب الذي لا يحد ولا يوصف. فليحبني العالم كله، أو فليبغضني وماذا يضرني ما دمت أنا احب العالم كله، واود لو اهبه بقدر حبي فضلاعميما. وأنت رجل قدر عليك ان تلعب دورك على مسرح الحب بلباقة فائقة ولن يتم لك ذلك الا إذا أحببت حباً مرهفا قويا، حساسا ذكيا، ساميا ابيا، كريما، عليا، مضحيا، نجيا، حبا يضحي بكل شيء في سبيل مثلك العليا التي تخذتها طريقك إلى السماء فتفاخر الأنسانية بفضلك وتتباهي على الأجيال الخوالي

وهنا احسست ان قواي تخاذلت ومشاعري تنبهت، فلم اعد قادرة على صد تيارها الجارف وخشيت ان يناله مني ما لا أرجوه، فقد لمحت عليه ظاهرة الألم والاضطرام، فترفقت به واستطردت

والآن احلت لك الحياة ما رجوته في ماضيك، فكيف تحرم اليوم على نفسك ما رغبته فيه بالامس. أردت ان تتزوج واخترت من بين النساء جميعا فتاتك، ولا شك انك حكمت عقلك وقلبك معاً، فلماذا تفر منها اليوم راغبا في فتاة أخرى؟ أو تحسب أنني امتاز عن فتاتك بشيء، لا تظن ان عروسك وإن كانت على قليل من العلم والثقافة إلا أنها تحبك حبا يحوطك بالرعاية والوفاء، إنها تحبك حبا قويا على الأقل، وأنا اعتقد ان المرأة المحبة تخلق من هواها فردوسا خالدا ينعم فيه الرجل بما يرجو، فوطن النفس على ذلك،

ورك فكرك على هذا المحط، ولا تجنح بخيالك إلى فضاء الوهم الفسيح، وليس الزواج حلما من الأحلام، إنه حقيقة خطيرة، إنه حياة قائمة بنفسها لها ميولها وتوافقها، وأنظمتها وقوانينها، فلا تظن أن حب الرجل وحده يكيف هاته الحياة، في مقدور المرأة ان تكيف مزاجك وتلطف مشاعرك، وتنظم شئونك، وتجمل حياتك، بل في مقدورها أن تخلقك خلقاً جديداً ما دامت تحبك الحب الكامل البريء الخالص، ولكن ليس في مقدورك أن ترتفع بها إلى سمائك إذا كانت تمقتك المقت البغيض

تنفس الصعداء، متطلعاً إلى السماء، ثم ارتد طرفه إليه في هدوء فرنا إلي ثم قال

ولكنك أبداً أمامي، وأنا اجزم أنك تدركين حبي وتبادليني إياه، ولكن بينك وبين نفسك مهما واريت، فعيناك يختلج فيهما ضوء حبك وكان صادقا بلا ريب، لذا حاولت أن أتابع المرئيات ببصري، حتى لا يرتكز نظري عليه

ثم ابتسمت في دعة وقلت في تلطف

لا تحاول أن تشرح قلبي، اذ من العبث أن تعرف ما وراء، ولكن حاول إن شئت أن تعرف رغبتي أنا فتاة نهمة أتطلع إلى ما وراء السماء، وأنت تعيش بمالك وجاهك ومركزك قانعاً لا ترنو عيناك إلى ما وراء ذلك، وكل هاته الظواهر في نظري لا قيمة لها، وقد رضيت بها الإنسانية راغمة، لأنها

سلم الرقي العمراني المزعوم الذي يتطلع إليه ابناء المادة عبيد الرغبات والمطامع المحدودة، وقد أكون أنا شاذة لأني أبدا اتطلع إلى ما وراء نفسي، وأترقب أشباع نهمي عن طريق أمل جليل لا يحققه غير طيف الرجل العبقري الذي أودع في روضته خلاصة المثل العليا، أنا أريد الحياة على غير ما يريد الناس جميعاً، لأني أريدها مضاءة بالحب الجليل، والتسامح النبيل، والبر العظيم، والفضل العميم، والجهاد الفائق، والتمرد الصادق وقد يحلو لي العذاب في سبيل ذلك

فقاطعني قائلا

يا أخت الخيال رويدك، إنك تتكلمين بلسانك وحديث اللسان غير حديث القلب

فعز علي ان يشوه حقيقتي، فقلت في غير لين

لو كان للساني الحق في حرية الحديث لاستطعت أن أسترضيك على الأقل منذ بدأت تضطرب في سبيل عاطفتك إن أبغض الأحاديث عندي حديث اللسان وهو كطلاء لوجه، تجهد المرأة نفسها في اتقانه، وقليل من الوقت كاف لتشويهه، وهذه الظاهرة لا تعنيني بقدر ما يعنيني مواجهة الواقع ولو كان أليماً، فأنا أحب السير في الطريق وحدي ولو كان لاحباً موحشاً مظلماً وقد يحلو لي السير فيه طويلا لأعرف حقائق الوجود، لأن الحقائق تحتجب وراء المجهول لتحمل البشر على الدرس والبحث والتنقيب والجهاد

فلأكن واحدة من هولاء الباحثات الدارسات المجاهرات ومحال على ما أعتقد ان أتلذذ بروعة الضوء إذا لمحته عن طريق غيري، بل إنه يسرني ان أدرك الحقيقة وحدي عن طريق أفكاري وأحلامي ومواهبي

وهنا كنت قد نسيته بأفكاري، فأدركت موقفي منه حيال نظراته العميقة الوضاءة فنظرت إليه برهة صامتة مستعيدة فكري، ثم استطردت

أما وقد شاء الله لك عروسا من خيرة الفتيات جمالا وطيبة قلب، وطهراً ووداعة فعش لها

وكان يصغي إلي بانتباه دون إن يقاطع ترسلي وما كدت اشير إلى عروسه حتى صرخ في وجهي

كفي، كفي، أرجوك، قد تركتها تركتها ولابد

قلت وقد اعتراني شبه ألم ممض، وثورة كادت تصرعني لولا أني ملكت نفسي

كيف تجرؤ؟ إن كانت أساءت إليك، فأنا شفيعها لديك، تريث يا سيدي وفكر طويلا فعسى ان يعود إليك صوابك وعافيتك

قال

حسبك يا آنستي ولا تضيفي إلى همومي هماً جديداً، دعيني وحدي أتصرف كما يحلو لي، وتخلي عن طريقي إذا شئت وكوني راضية أو غاضبة ولا تجعليني هدفا لقنابلك. قنابلك أيتها القاتلة التي يحلو لها أن تبسم على حين عيناها ترسل إلي شررا تكفي الواحدة منها لأحراق

كان يتكلم وقد ملكته كبرياء الرجولة، وعزة نفسه، وبدأ كأنه صحيح الجسم معافى فابتسمت في هدوء وإن كانت عيناى تكاد ان تنفجران بالدموع وقلت

يا له من حلم رائع إلى متى يواتيك وهمك عد إلى عقلك إن كان شبه مس قد أصابه ولا تخلط بين الحقيقة والخيال، فالنزوع إلى الحق ولو كان مرا فضيلة

فقاطعني صارخا

أنت التي تنزعين إلى الخيال، الخيال الطائش على ما أظن، فجابهى الواقع على ضوء قلبك، ولا تفكري بعقلك فقط لأن العقل وحدة لا قدرة له على الحكم العادل

لم أستطع رد ثورتي النفسية وخشيت أن يلمح ظاهرته بادية علي فأسرعت وتركته وأنا أردد

يبدو لي أن لا فائدة من الحوار، إن المرض جر عليك ذيل الوهم، ولا فائدة وراءه، أتمني لك الشفاء

وتركته دون ان التفت إلى رجائه، وقبل ان أنصرف قادتني شقيقته إلى البهو وأنا أسوق قدماى في شبه عنف لفرط ما بي من اضطرام وجزع وألم ولم أستطع كبح جماح عواطفي فبكيت. اجل بكيت

لست ادري لم بكيت، ولكن شقيقته جففت عيني بمنديلها في رفق وقبلتني في حنان ثم قالت بصوت خفيض

يا عزيزتي إنه يحبك، إنه يحترق بدموع قلبه وقد صح عزمه على ترك خطيبته، ولابد من ذلك فلا راد لأرادته، ترفقي به يا صديقتي أو على الأقل اعطفي على شبابه الغض وذهنه الخصب فالمرض يتلاعب بهما، كلمة منك تشرح صدره وتطمئن قلبه. اجيبي بصراحة لماذا تصدينه عنك. الزواج مقدر عليك مهما قاومت رغبات الأهل والصحاب وماذا يعوزك، مركز وثراء وحب، إنه كفء لك يا عزيزتي

قلت لها وقد عاد إلى هدوئي

بل هو فوق مستواي إن شئت تصريحاً ولكني لا أستطيع ان أساهم معه في قتل نفس بريئة محبة وفية وهل هذا يرضيك؟ لا تحاولى قتل البريئة معه. ما ذنبها؟ ان قانون العدالة يقضي بقتل القاتل لجسم، فأي عدالة تنص على عقاب النفس الطيبة الطاهرة وقتلها، وأي عقاب أرهب من الموت يستحقه ذاك الجاني؟ لا ان القتل أهون في يقيني

فقاطعتني

ليس ثمة قتل كما تتوهمين فسوف تتزوج بآخر

قلت

من ادراك؟ انها تحبه، وصدمة كهذه كافية لقتلها فاني اعرف خبيئة قلبها من عينيها الصافتين، هذا ظلم، لا لا يا صديقتي كوني رحيمة!

قالت وقد طوقتني بذراعيها على اثر الدموع التي انهالت من عيني

تصوري كيف أحرص على حبك وكرماتك، وأصون ولاءك، تصوري كيف أغار عليك من لداتك، أنا الفتاة التي تقربني منك عاطفة الحب النسائي، لا أحتمل منك أي تجنب أو جفاء، فما بالك برجل يحبك حبا، ساميا، قويا، زخارا، وشتان ما بين حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل

وهنا تذكرت الصورة فسألتها صورة من تلك التي كانت بين يديه، فتلعثمت وقالت في خفوت، وقد ملكتها رجفة هادئة

صورتك

فهالني الأمر. صورتي! وكيف أخذها؟ ومن أين؟ فنظرت إلي في استعطاف وقالت

سلمتها إليه وأنا باكية خوفا منك، وخشية عليه، فاصفحي عني

قلت في حدة

لا! أتسيئين إلى كرامتي ابتغاء مرضاة أخيك؟

واستويت واقفة في غضب فأجلستني بيديها في هدوء ولطف وقالت بصوت لين

عفوك انه يحرص عليها أكثر من حرصك على نفسك؛ انه يصونها أكثر مما تتصورين؛ وما ضرك لو تداوي بخيالك على ورقة أيتها البخيلة؟ ان عاطفته نبيلة وغرضه أنبل، انه يحبك ويريد ان يتزوج منك، فمن يعيب عليه ذلك

قلت في صرامة

لن يحدث ذلك، وكيف يهجر خطيبته بلا ذنب لها هل جزاء اخلاصها ووفائها، وحرصها على كرامته الحكم عليها بالأعدام، أوه! يا للأنانية كيف تطلبين مني شقاء غيري لأسعاد نفسي، وأنت بخلقي ومبادئي عليمة، كيف أقتل قلبها لا شبع عاطفة قلبي، يا للهول انها لجريمة كبرى؛ وان عدها الناس دون ذلك

فحنت علي وقالت

انه يهواك، وقلبه لم يخفق لسواك؛ وقد ادرك ان حبه لها كان خاطئا

فقلت بنغمة التهكم والسخرية

وسوف يحب غيري في الغد وسوف يعرف أن حبه كما تزعمين خاطئ ان قلبه يا صديقتي وأعني قلب الرجل إن شئت إيضاحا كالفراشة تحوم هنا وهناك، وترف فوق الأزهار مستمدة منها العبير لتحيا، أرأيت فراشة هائمة حول الضوء؟ أو لم ترى كيف راق لها الضوء، وكيف ملك عليها حسها وكيف تهيم وراءه لما فيه من لذة لها، ولا فرق عندها بين الضوء اللهيبي، وبين اللون الزهري فكلاهما أمامها سواء؟ ولكن حسبها أن وراء الضوء ما وراء الزهر من متعة تحمله على ان يظل يرف حتى يسقط في النهاية حريقاً بعد أن تهد كيانه الرغبة المكبوتة الفراشة لا تموت بعد ان ترف على الزهر لأنها قد تنال من الزهر حظها المرغوب، ولكنها تموت على أثر الطواف حول الضوء، وسر ذلك الحرمان. أجل الحرمان هو باعث هيامه، وسر غرامه. والحرمان كما أظن هو طابع الحب، وعلى قدر نصيب الأنسان منه يكون حظه من الحب، فالحب يبقى مادامت الرغبة باقية، والرغبة تبقى ما دام الحرمان موجوداً، المتعة تغذي، ولكنها تقضي على الرغبة وهاك دليلا بسيطا، فالجسم عندما يتغذى لا يشعر بجوع، وإذا جاع شعر بحاجة إلى الغذاء، فحرمانه الغذاء يدفعه إلى طلبه وما يسري على الجسم يسري على النفس تماماً فلو ظلت عروسه تحرمه ما يرجو لبقي حريصاً عليها طوال السنين، ولكنها بريئة النفس ساذجة إذ اندفعت وراء حبها وعز عليها أن يرجوها فلا تجيب، لقد أساءت إلى نفسها بقدر ما أحسنت إليه! هلا تصدقين؟ لقد ملأت روحه بضوء الحب، وعلمته كيف يحب، وما هو إلا أن تعلم

كيف يجوب الآفاق ويحلق بجناحي الحب في السماء، حتى حلا له أن يطير في كل واد راجياً حياة جديدة، وإن الرجل يحب ويهوى لست أنكر ولكنه يحب نفسه يحب رغبته، ويفني في سبيل العثور عليها، فاذا أنالته الحياة متعة الحب كما يروم ازداد طمعاً وجشعاً، لأن النفس البشرية من رأيها الطمع كالمعدة تماماً تشعر بالمرض، وتكل عن الهضم وتطلب وتطمع، وهكذا يظل يحوم وراء كل ما يروقه لينيل حظه مما يشتهيه، وتتعدد رغباته وأمانيه وتتسع احلامه وأخيلته على طول الطريق، وما أشبه الرجل المحب بالسكير يبحث عن خمرة أيا كان نوعها في كل مكان راجياً ان يوفق إلى النادر النفيس ولكن من توفيق الإنسانية وسعادتها، ان هناك مثلا عليا تحمل بعض الأفراد الممتازين على السمو وتدمير الأباطيل والعصف بالتقاليد الوضيعة سعياً وراء هاته المثل العالية

فقاطعتني

ولكنك ظلمت أخي، لأنه لم يختلط بها كما تزعمين كثيراً ومنذ عرف أنها لا تجيد الموسيقي كما كان يظن، نفر منها واجتواها

فازدادت ثورتي وقلت

هاته أغلوطة أخرى، إذ من العبث أن يخلط الرجل بين الخيال والحقيقة فيعمل على تركيز حياته المنزليه على أحلام

ذهنه. أتكون الموسيقي وحدها كافيه لتشييد منزل عامر؟ إن الموسيقي ظاهرة كالجمال والمال وما شابههما، فلا يمكن بأي حال أن تقيم منزلا عامراً وحدها بل لابد أن تركز هاته الظواهر على توافق الميول والنزعات وحسن السياسة المنزلية، والتدبير والاقتصاد، والعمل لصالح الوطن عن طريق الأسرة المنوطة المرأة برعايتها، إلا كان يجدر به ان يتأكد من طباعها وميولها ونزعاتها، قبل ان يقيد نفسه برباط مقدس خالد ويحكم على نفسه بالشقاء المحتوم؟

قالت

إن أخي لم ينعم بجوارها كما تتوهمين وقد عذبه الحرمان ولعل الحرمان جرعة من السم تميت من يتجرعها، ولكنه الموت البطيء

قلت

أحيانا! ورغم ما ينفثه في الصدر من هموم، وخواطر أليمة، فهو يخلق في النفس قوة ممتازة تحمل صاحبها إلى سماء الفن، وقد يظل سامياً ممتازاً، وقد لا يكون، والحرمان على أية حال يفيد كثيراً، ولعلك تعرفين أن سر خلود الحب وبقائه على مر السنين وهاجا لامعا يتعلق بقوة الحرمان وضعفه، أتراه أدرك ميولي ونزعاتي مع أنه لم يختلط بي اختلاطا يبيح له ذلك؟ كلا. إذن فهو يسير خلف خيال خاطئ

وشاءت أن تدافع عن أخيها فقالت

أجل انه يفهمك تماماً، لأنه ذكي بصير، ولولا ذلك ما أحبك هذا الحب العميق

ثم هزت رأسها وأردفت

لأول مرة ألمس القسوة عن طريق قلبك، فيا لك من قاسية اجل أنت قاسية جدا جدا يا عزيزتي، مع أنك واأسفاه فنانة!

قلت

وهذا عيبي، نعم عيبي أنني فنانة

ثم أكدت

صدقيني إنه عيب لا شفيع له، ودليل ذلك أنني أتخبط في الدجى وحدي على ضوء هذا الفن، بينما الناس يتمتعون بأمانيهم على حساب غيرهم، ويرتفعون بأنفسهم على أعناق غيرهم ايضاً، أما أنا فقد وهبت الفن اماني الحسان ورغبت إليه أن يمنحني نفحة من النعيم الروحي، ففتح لي رتاج ذاك النعيم، ولكنه بعيد، بعيد جداً حتى إنه ليجشمني الوصول إليه كثيرا من العناء ولسوف أسير دائما حتى ابلغ غايتي أو أقضي دونها؛ فليس تحفظي جمودا كما يبدو لك ولكنه فن من الفنون؛ ولعلك تعجبين إذ أصور لك العيب الذي لا يروقك فناً محببا؛ عيب فني ظاهره القسوة وباطنه الرحمة والسلام انه كمبضع الطبيب يحملنا على العويل والصراخ

ولكنه عويل الرحمة وصراخ الشفاء، فأنا محبة، ولكني أحب حبا علويا شفافا نقيا، جليلا أبيا، وأطمع في الحب الذي يزيد من شعلة هاته النزعات فيزيدها توهجا وضراما

ارتاحت صديقتي لصراحتي، فابتسمت في بساطة وقالت في سذاجة

حسن من تحبين

قلت

أحب الروح العلوية التي تعصف بالغدر والخديعة وتتمرد على الحقد والأباطيل وأحب أن تكون صلتي بمن يحبني صلة فنية، كالصلة التي تربط الفنان بايحائه

فاستلقت على ظهرها من الضحك وقالت

حتى حبك قاس كقسوتك

قلت دون أن أساير ضحكها

وأنا أتشبث بأذيال هذا الحب القاسي مادام يرتفع بي عن الأوضاع غير المشروعة لأتخذ منه قوة أصارع بها الأهواء والرغبات الباطلة وأذود عن نفسي كلما واجهني أحد المتطفلين أجل يا صديقتي أنا أعبد ذاك الحب الذي يعلم البشر العزف على أوتار الأمن والسلام ويحطم أغلال الحرب والخصام، فتكون الانسانية بفضله محطا للهدوء والأمان

وكأن في ذلك استهتارا بعاطفة شقيقها فثارت علي وصرخت في وجهي

لو أنك غبية لعذرتك ولكنك ذكية، ما هذه الفلسفة الجافة ثقي ان أخي لم يحب سواك

قلت

محال ذلك وهبي انه يحبني الآن ذلك الحب الزخار، فسوف يلمس في الغداة حقيقة اخري، ويشاهد صوراً اروع، تدفعه إلى حب جديد، وهذا بطبيعة التناسخ الذي تكشفت عنه السيكلوجية الحديثة لأن الجمال تنسخ صوره بعضها بعضا. ولا يبقى في بؤرة الشعور الا الصورة الواضحة القوية التي تتغلب على الصور الأخرى التي في حاشية الشعور، وليس معنى ذلك دوام هذه الصورة في بؤرة الشعور. كلا. ولكنها قد تضعف ويحل محلها صورة أخرى تغلبت عليها من صور الحاشية، فتخرج الأولى إلى الحاشية وهكذا فالقول بأن هذا يحب تلك حبا ملك عليه قلبه، ولم يترك مكاناً لغيرها، ان ساغ أدبا، لم يعد يسوغ سيكلوجياً. فصورتي التي تبدو أمام شقيقك في هاته الأيام وضاءة فاتنة ساحرة سوف تتلاشى في الغداة إذا ارتطمت أحاسيسه بصخرة سحر اقوي وفتنة أشد أو على الأقل إذا تكشفت له مني ناحية لا يحبها. والآن دعيني احاول بلباقة صد تيار عاطفة اخيك لنأخذ بيده إلى محط الراحة والهدوء والسعادة التي يتغافلها ونسعد بجانبه فتاة جديرة بالسعادة والهناءة، دعيني امد يدي

الصغيرة في خفاء ورفق إلى صدره باسم يدك لأنزع صورتي من بين قلبه، ولأضع مكانها صورة عروسه حتى يراها بالعين التي لا يزال أبداً يراني بها، ولا شك ان الله سيكلؤهما برضاه والآن إليك مهمة بسيطة فحاولي القيام بها من اجلي فعسى ثورة الحب أن تخمد عنده. تعلمي الكذب من اجلي وإنه لكذب بريء، قولي له إني مخطوبة وإني أهوى خطيبي وليس في مقدوري ان احب سواه حاولي الافتراء يا صديقتي

فقاطعتني

أو تقتلينه راضية وأنت التي وقفت ضوء قلبك وبر روحك، وعطف نفسك على البؤساء؟ أو ليس جديراً بذلك من سببت له البؤس والشقاء؟

قلت

اما عن الشطر الأول فلا أنكر، وأما عن الزعم الثاني فأستنكر وهبي ذلك، فالشقاء ليس معضلة، إن من الهين إن يتلاشى ويتناثر كالأشلاء، ثم يحل محله السعادة والصفاء، ومن أجل ذلك دعيني أتعمد الجفاء، لأن الحقائق مشوهة، ولا مندوحة من الهروب إلى الخيال، دعيه يتخيلني غير ما يرجو لينسى، قولي له إنني فتاة جاحدة، شوهي حقائقي وحطمي مطامعي، وأفسدي فضائلي، حاولي ان تقذفي بروحي في بحر صاخب من الأوهام السقيمة، وتعالي إليه

بعروسه في فضاء أبهج وأجمل، أفعلي ذلك من أجلي وحرصا على مستقبل الفتاة البريئة ليرعاك الله في مستقبل أيامك، إني أريد سعادة أخيك وسعادة الفتاة، يا صديقتي كوني مكانها وتخيلي مصابها لنفسك، ثم حكمي قلبك وعقلك

فتأففت ودمعت عيناها وتعطفت علي وقالت

ولكنك ستعانين ألم نفسك، وألم غيرك فأني أعرف قلبك

قلت وأنا أحاول ان أخفي هاته الحقيقة

سأظل حياتي انشد شعراً، وأوقع لحناً، وأرسم صورا كلها تنتمي لحقائق الوجود في كنف ضوء الفنون وسأظل أقرع باب الحقائق بعصا الأحلام حتى تواتيني المعرفة، فأعض عليها بنواجذي لأدرك المجهول على ضوئها وهناك عند محط الواقع، أوقع ألحان الوجود لأسمع الكون أغاريد الخلود

وسمعت تصفيق المريض، فأسرعت اخته إليه وخشيت أن يجهد نفسه ويغادر فراشه إذا علم بوجودي وقبل ان تعود كنت في طريقي إلى منزلي، بعد أن تركت إليها مع الخادم تحية المساء

٣

سرت في طريقي إلى منزلي، ونظري يمتد خلف الطيور في السماء حيث تطير، وهي تنتقل من فنن إلى فنن يا الله! أهكذا تطير قلوب الرجال حول العذارى؟ ولكن ما ذنب الرجل، أيسأل عن هذا التصرف؟ وهل هو تصرف خاطيء كما يعتقد العامة؟ لا أظن إن الجمال في كل مكان، والله لم يوحد الجمال كما يوحد الإنسان حبه، بل الله نفسه لم نحبه هذا الحب الجليل العظيم، إلا من تنوع مآثره الجميلة الرائعة الخالدة، وأظن لو كانت هناك سماء فقط دون أرض أو نبت أو ماء ما بلغ حبنا لله ما بلغ بنا اليوم، ولو كانت الأرض بلا سماء ما استطعنا ان ننعم بالحياة كما ننعم اليوم، ولولا وجود الورود ما عرفنا جمال الزهور ولولا نعيق الغراب ما شجانا البلبل، ولولا البغض ماعرفنا الحب فالرجل مجبول بفطرته على حب الجمال، والمرأة هى محط ذاك الجمال، فليحب الرجل كما شاء، وليتنقل بروحه الهائمة من دوح إلى دوح، على شريطة أن يكون صادق الحب وأما ان يخلط بين الصدق والكذب، ليستغل الحب في تحقيق رغباته، فتلك أغلوطة الحياة الكبرى، أنه يسئ إلى نفسه بقدر ما يرجو من إحسان، لأنه لا يحكم قلبه وعقله في جمال، ولكنه يجرى وراء شهوة نفسه. والشهوة أبداً نزاعه إلى السوء. أجل الرغبة تدفعه إلى المجون. والمجون يهوى به إلى الحضيض و لا خير في رجل يسف، أجل ولو حكم الرجل قلبه وعقله، لكان صادق الحب، ومن صدق حبه فقد حسنت دنياه، ومن حسنت دنياه فقد كسب الحياتين. لبثت أخته تزورني من حين

إلى حين، وهى في كل زيارة تحاول التغلب على بدموعها وحديثها وأنا اتكلف الجمود، وأدفن المرارة، وعولت على عدم زيارتها تمهيداً لما انتويته من قطيعتها، وكم كانت تهيب بي ان أزورها وعبثاً ما أرادت، ولست أنسى يوم جاءتني، وقد اتشح وجهها بنقاب الهم العميق والقلق الشديد، فبعد ان بكت طويلا استطاعت بعد جهد ان تنبئني بأن أخاها قد برحت به العله حتى بات تحت رعاية الطبيب وحده. وقد رجتني ان أرافقها لأشاطرها العبء فقد اضناها جهد تمريضه، وألم علته، لان والدته عند ابنتها منذ أسابيع وتخشى ان ترسل إليها وهى مريضه القلب فتسئ إليها من حيث لا تدري، ولم يسعنى ازاء توسلها الا ان ارافقها، فقد ادركت خطورة الحال من دموعها وحديثها، وقد عودتني الصدق والصراحة ولم اكد ابلغ مضجعة، حتى لقيني طبيبه بألم مرير، وقد تكلف الابتسام ثم صافحني في مرارة فبادرته سائلة

أو حالته خطرة؟

فغمغم في بأس وخفوت

أتمنى له الشفاء على يديك

وحولت نظري إلى المريض فاذا هو في غفوة عميقة تبدو على وجهه ظاهرة الداء المبرح فمددت يدي بهدوء لأجس نبضه، ولكني اضطربت حينما سمعت نغما متقطعا خافتا يخرج من بين شفتيه في شبه كلمات متقطعة لا أواخر لها

حبيب... تعالي... لأراك... ثم أمو... سأنتظرك... هناك
حيث لا نظم ولا فلسفة ولا خوف

خانتني عيناى، واشتد وجيب قلبي ولم استطع كبح جماح عواطفي، ولعل الطبيب ادرك ذلك فنظر إلي في عطف ورثاء ثم قال

إنه يهذي

قلت والدموع تنهمر

أيطول؟

فطمأنني وفي صوته رعشة الألم المكبوت، وفي عينيه التماع الحزن والعطف والرجاء. وبعد ان عالج الطبيب اغفاءه تحرك وفتح عينيه، وخشيت أن يلمح ظاهرة الكمد والحزن على وجهي فتواريت خلف الطبيب لأجفف دمعي، واقتربت منه الطبيب باسما وداعبه في رفق قائلا

ألا تصحو؟ إنها بجوارك

قال

من؟

فهمس في أذنه

من تحبها

فأرخى المريض جفنيه ولم يجب وتمشت حرارة الحياء في شراييني فابتعدت عنهما ونظرت إلى الأخت نظرة سريعة فهمت معناها، فاقتربت مني وهمست في أذني

إن الطبيب صديق الأخ منذ الطفولة، وهو كاتم اسراره فاطمئني إليه لأنه على خلق عظيم، طيب القلب كريم النفس كامل الرجولة

وسمعها الدكتور فابتسم دعة وقال بصوت خفيض

يا آنستي ترفقي بي من أجل الواجب فقط

ثم دنا من مريضه وخاطبه

هيا... تكلم

فأجابه بلهجة متقطعة

لقد قربت الساعة يا دكتور،

فقال الدكتور

ستعيش طويلا و طويلا جداً، وسوف تنال حظك من السعادة التي ترجوها

فاغتصب المريض ضحكة فيها رنين الألم الممض وقال

أحقاً أننا نلتقي بعد الموت بمن نحب،

فربت الدكتور على كتفه وخاطبه في رفق

أو تذكر احلامك في الصغر؟ لقد كنت بعيد النظر وما لك اليوم لا تصارع رغبات نفسك كما كنت تفعل

وقبل أن يجيبه المريض قلت

ما علته يا دكتور؟

فالتفت إلي وأجابني وعلى ثغره بسمة غامضة

اظنه تهاون في رعاية نفسه ولأنه لم يألف برودة الجو، فقد وائته حمى طفيفة قد تزول بعد حين

ففرحت بيني وبين نفسي وابتسمت بدوري، وشئت ان أقول له ومتي يعافى؟ ولكني قبل أن أتكلم توسل إلي ودفعني برفق إليه دون كلمة فقلت وأنا أحاول أن أبدو امامه هادئة

أتمنى ان تكون بخير

فأجابني

ما دمت فأنا بخير

قلت

ولكنك تتمارض. أليس كذلك؟ أأعجبتك راحة السرير

فابتسم بسمة تنفس فيها آهة حارة وقال

من ادراك أقلبك؟

قلت

قلبي يحدثني أنك ترجو

قال

وما ارجو!

قلت

عروسك

فعانقتني أخته وقالت

رحمتك يا عزيزتي تذكري انه مريض

وأيدها الطبيب بقوله،

ان الرحمة وليدة قلب المرأة فكوني به رءوفة عطوفة يا آنستي وقد استدعيتك لأستعين بك على شفائه وبرئه، فكوني عند حسن ظني فيك وإني صديق حميم له، وأعرف عنه ما يعرفه عن نفسه وبحق هاته الصداقة أتيح لنفسي التدخل بينكما، فاعذريني يا آنسة

قلت وأنا أتحاشي ان أرفع نظري إليه لكيلا يلمح ما يبدو في عيني من خجل وألم، وأظن ظواهر ذلك علت وجهي فأحسست أن الدماء تكاد

تنهمر منه وغمغمت في حياء

أطمئن

فابتسم شاكراً واستأذن منصرفاً على ان يعود سريعاً فيلقاني، وأظنه تعمد ذلك، وتقدمت الأخت من أخيها، وداعبت خديه في حنو وهمست في أذنه بنغم مسموع

إنها بقربك فاصح تشجع إنها حزينة من أجلك

فقاطعها

آه إنها...

فقدمت منه وعطفت عليه ثم قلت

ترجو لك الصحة والعافية

فتغاضى عني وخاطب أخته

إنها تزيدنى مرضاً على مرض

فترفقت به وقلت

أهكذا تظن؟

قال

واأسفاه، قدمت لي كأساً شفيفة ولكنها مليئة بشراب تكفي الجرعة منه لقتل أقوى قلب

قلت

ترفق بنفسك فان الوهم مضن

قال

أولست أنت؟

قلت

بلى

قال

أنت وهمي

قلت

إذن دعني أتقشع

قال

وهم الخلود أعني، فأنت باقية ما بقي الخلود

قلت

حتى فلسفتك تواتيك في منامك

قال

إن الفلسفة ادراك الحقيقة، وأنت حقيقة إدراكي في يقيني

قلت

فكر في نفسك فقط، ودعك مني حتى نتعافى

قال

إذ كان في مقدور الأنسان أن يصد عنه تيار عاصفة جارفة، استطعت بدوري أن أصد تيار عاطفتك إنها عاصفة مدمرة أخشاها

فحنوت عليه وقد شعرت أن كياني يحترق ببطء، ومررت على جبينه في صمت وكأنه أحس بحرارة حزني تسري إليه عن طريق يدي، فأغمض عينيه في شبه غفوة وتنهد. وشئت أن أخرج به من صمته فقلت

أتراك تحلم؟

ففتح عينيه ولعله شاء أن يجيب عنه دمعه، قلت وأنا أجفف مدامعه، وقلبي من فرط اللوعة يكاد يفر مني

والآن أتدعني؟

وفي الحق لم أرغب في الانصراف إلا خوفا عليه وعلي، ولكنه قال بصوت حزين

إلى أين؟

قلت

أنصرف

قال

ظننت

قلت

وما ظنك؟

قال

أدعوك إلى عالم احلامي فنحيا هناك سويا نستضيء بضوء الكواكب، ونمرح في الفضاء غير المحدود، وننعم بحياة الطلاقة والصفاء حيث لا قيد ولا عناء

قلت بصوت يشف عن رغبتي

بي ميل إلى تحقيق ذاك الأمل، ولكن صوت الضمير ينهاني

قال

لم توارين الحقيقة خلف الضمير

قلت

مادمنا نرغب في السعادة المتدفقة من القلب والطمأنينة المستقرة في الروح، فيجب أن نركز هاته الأماني على محط الضمير

قال

يا لظلمك، ومتي اهاب بنا الضمير إلى الشقاء

قلت

إنه لا يفعل، ولكن الإنسان يميل إلى مغالطة ضميره مرضاة لرغبة يرجوها

قال

ومادامت الرغبة بريئة طاهرة فالضمير يتعالى على أباطيل السوء

قلت

يسرني انك تتكلم بلسان المعافي، ولا شك أن انحرافك ولي عنك

قال

مادمت بجواري فأنا على أحسن حال

قلت

تعبير لطيف تشوهه المجاملة بودي لو تتجنبني... لأعرف مدى قوة الرجل

فتأفف وتأوه وقال

أف منك يا... لآخر مرة أحب ان أقول لك الحقيقة التي أعرفها ولم أعرف سواها هي أني لا أحب إلاك.

قلت

آه خانك عقلك، أنسبت نظرية التجديد؟ إنها تسري حتى على العاطفة. آه عروسك

ثم ارتعشت شفتاي على أثر مدامعي، فعضضت عليهما حتى كدت أقطعهما من فرط الألم، فتململ ملتاعا وهاجمته دموعه، فأرخى جفونه وظل هكذا على صورة هادئة، وأنا حياله جزعة هائمة بروحي حوله غير قادرة على صد اضطرامي وأخيراً استطعت بعد جهد أن أواري همي وأداعب اصابعه في هدوء وحنو حتى انتشى وفتح عينيه. فقال بصوت خفيض

أو أنت؟

قلت

أو تشك؟

قال بشغف

هبيني ميثاقك

قلت

لك بعد شفائك

قال بصوت صريح

قد شفيت

قلت

إذن غادر فراشك

قال

بعد الميثاق

قلت

هيه

وسكت وأطرقت برأسي. وقد أحسست أن الحرارة تسري في وجهي ولكن شبه طيف وقف بيني وبينه يهمس في أذني حذارا! فاستوي في جلسته، وبدأ كأنه تعافى حقا والتمعت إشراقة الصحة في وجهه وبلطف النسيم سحب يدي ورفعها إلى فمه فشعرت بأن الطيف قد توارى بعد أن هبت علي نفحة حارة من لدنه قلت و قد قطبت جبيني كأني غاضبة

أين حذرك؟

قال

أتضنين برشفة شفاء أحيا بها أيتها البخيلة؟

قلت

إذن تعافيت

قال

هو ذاك!

قلت

ها قد اطمأننت فدعني أنسحب

قال

ولكن ارجو ان أظل حيا

قلت

مادمت تعافيت فالحياة تحبوك أو ليست العاقبة هي الحياة؟

قال

أو تجهلين؟

قلت

قد أكون جاهلة لا أدري

فأرخى ذراعيه في شبه استسلام ورفع بصره إلي كأنه يتوسل وقال بصوت رزين

الشفاء هو الحياة والحياة يا حبيبتي هي الحب وكأس الحب فاك فهبيني رشفة منه

قلت

ولكن الكأس لا شراب فيها فلا تطمع

قال

أنا أعرف بدخيلة الكأس!

وفجأة دخل الطبيب ونظر إلى المريض مستريحاً لحاله ولمح على وجهه بهاء الرضا وفي عينيه التماع الصحة فربت على كتفه وقال

أراك شفيت؟

فأجابه

يا له من شفاء! ولكن الناقوس دق والمصلي لم يتم صلاته

فقال الطبيب مازحاً

إن كثرة التعبد كفر...!

وهممت بالخروج متعثرة فاستوقفني الطبيب بنظرة توسل وأشار إلي في خفاء واقترب مني وهمس في أذني بحذر

أهنئك يا آنستي فقد برعت في تطبيبك وفي لحظات عالجت مرض أيام قدر لي أن أقوم بتمريضه فأنت له خير من...

وهنا قطع حديثة على إثر صوت الخطيبة وهي تخاطبه

أنسيت مريضك يا دكتور

وقد دخلت على غفلة ولم نشعر بها ثم رمتني بنظرة عييت عن تفهم معناها وهممت ان أصافحها ولكنها غضت الطرف عني متشاغلة بخطيبها، أذهلني ذلك وأشكل علي الامر وخشيت أن تكون قد جاءت من زمن ووقفت متوارية لتسترق السمع... لابد... لابد... نظراتها تخيفني على أني حاولت ألا أبدو أمامها مضطربة فاغتصبت بسمة لها وقلت

أن مريضك طلبك كثيرا وكان على وشك أن يبعث إليك رسوله

فضحكت وقالت متهكمة

هل أوحى إليك؟

ثم اتجهت نحو المريض وناجته بأعذب ألفاظ الجنان ولكنه لم يتحرك وأظنه تغافل ولبثت تداعب شعره بأصابعها وتعطف عليه وهو لاه عنها كأنه في شبه نوم أو تناوم، كانت صورتها فاتنة أعني صورة عطفها وحنانها على مريضها وقد جملتها العاطفة فبانت لناظري معجزة سحرية وكأن الطبيب أخذ بفتنتها وروعة موقفها فظل ساهما لا يتحرك ولا يتكلم يتلهى بالنظر الى المريض آنا و الى محتويات الحجرة آنا آخر ولكني كنت ألاحظ في خفاء استراقه النظر إليها في عجب ولما عيل صبرها خاطبت الطبيب أراه نائما وأظن الطبيب كان أعرف بدخيلة أمرها فأجابها بصوت حزين يشف عن الحسرة الدفينة على حظها

نعم أنه نائم فدعيه يستريح

ولمحت في عينه ما يقوله لها لولا احترام عواطفها. اجل لولا ذلك لقال لها إنه لا يستحق رحمتك وعنايتك وحبك دعيه فانه يبغضك وانسحبت أنا دون كلمة وشاءت أخته إن تستبقيني ولكني رفضت بدعوي الحرص على كرامة الخطيبة، وضرورة العودة إلى المنزل لشأن فيه. وعدت إلى نفسي بعد أن خلوت بها فلمست دخيلتها وادركت الحقيقة المخبوءة خلف كبريائي واحسست ان الحب قد سرت حرارته في شراييني ورأيتى أسبح في عوالم مشرقة جديد فيها سحر وروعة وفيها فتنة وجمال. ولكن كأن مبضعا كان يحز في قلبي فيحملني على التوجع في خفوت ووددت لو أبيع نصف عمري لشفاء دواء يشفي ذاك القلب الوجيع…

قد احببت! يا للهول! وأخيرا وبعد طول عناء، فكيف أتصرف؟ هل اسير طوع الحب غير عابئة بغيري أم اطوي نفسي على علتي لأقضي

على قلبي ليحيا غيري؟

وتنزل علي شبه صوت من السماء رن في أذني لا تعصفي بحب الخير في سبيل حب الذات، وحيال هذا الخاطر ارتكز فكري على محط عقلي وعلى ضوء الخير، رأيت الحق يقضي بأن أنسى كل شيء، عدا الشفقة على عاطفة الخطيبة. فقلت لنفسي ولكنه لا يحبها وقد يشقيها فقالت لي نفسي ولكنها تحبه وقد تسعده فينساك

وهنا صح عزمي على أن أكون القربان على مذبح الخير في سبيل إسعاد أخت لي في الإنسانية! فتعز أيها القلب بهذا الخير الخالص واتخذه معوانا لك في الشفاء!

٤

حبست نفسي داخل منزلي لا أرى أحدا ولا يراني أحد لأن نفسي المهمومة واحلامي القاتمة حملتني إلى دنيا العزلة والانفراد حتى لا أشوه جلال هذا الصمت الذي يخيل إلي ان راحة نفسي متعلقة به كما حملتني ان أحنو عليها وأرفق بها فليس عندي من يرعاها وبعد أيام ثلاثة وصلتني هاته الرسالة

عزيزتي

يا لصفاء قلبك! أتعرفين الفتاة التي تساهمين في سعادتها وتقدمين نفسك قربانا على مذبح إنقاذها؟ أنها رمتك ورمت صديقنا الدكتور بما لا تحبين فقد قالت جزاها الله أنها دخلت لتعود خطيبها فوجدتك بقرب الدكتور وهو يميل عليك... والآن كوني عذيرتى على سرد ما تكرهين وشفيعي لديك استجابتك لنداء قلبك والعناية بأخي الذي يحبك ولعلك تعرفين بعد الآن من ذلك الحادث ان تلك الفتاة التي تضحين في سبيلها بقلبك ونفسك غير جديرة بالتضحية.

وبعد فتعالي الينا على عجل فأخي يدعوك ليل نهار، وقد أمرني أمس أن أوصد عليه الباب وألا أسمح لعروسه بالدخول عليه بعد الآن. وقد آلمني أكثر أنها أساءت إلى

الطبيب من حيث لا تدري، فقد شاء أخي ألا يعوده مع أنه طبيب الأسرة والصديق الوفي منذ الطفولة، على أني واريت سوء تصرفه وأفهمت الطبيب أنه سيسافر عند أخته. ولعلك تدركين مبلغ حب أخي لك وكيف ضحى بصديقه في سبيلك يا عزيزتي حسبك ما فعلت وعودي إلى الرحمة التي ما فتئت تغمر قلبك الطيب الرحيم

ودمت للمخلصة

فيا لهول ما رأت الخطيبة الكاذبة المجرمة. بأي عين رأتني وكيف أباح لها ضميرها أن تسيء إلى فتاة دون جريرة اقترفها قد يكون لها العذر وقد لا يكون. قد يكون لأنها مغبونة وقد لا يكون لأني أبداً أمامها حذرة. ولكنه الشك، الشك الذي يتلاعب بذهن كل إنسان وكم عذب من قلوب وضمائر، وكم حطم من بنيان عتيد. بودي لو تقضي القوة الهائلة على الشك الذي يطغى على الحياة ويشوه الحقائق... الشك يخامر كل ذهن ويصل إلى كل قلب حتى الذهن الخصب والعقل الناضج. والشك يولد معنا، وعلى حسب نزعات الإنسان يشتد أو يضعف، وعلى حسب الوازع يبدو أو يخفي. أنا لا أعيب على الخطيبة تصرفها لأني اعرف هم قلبها، ولكن من يبرئني إذا ما وصلت هاته النقيصة إلى سمعه؟ وهكذا الأقاويل تجمل بالأصباغ وتحلي بالمحسنات الفكرية لتنال حظها في سوق الأباطيل!

لقد قضيت بعض الليالي قعيدة هم ناصب وفكر شاغل حتى جاءتني الصديقة يوما وأخذت ترجوني ان أرافقها لمنزلها ولكني رفضت ذلك في لطف ووعدتها ان أزورها قريباً ثم عاد بنا الحديث عن الخطيبة وتصرفها وواجب انتقامي منها لكرامتي المنتقصة وكانت الصديقة

حانقة عليها، فأخذت أقلل من حدة هاته القسوة، وآلمني أن تضيف قسوتها إلى قسوة أخيها وقسوة الأيام عليها وشئت أن أصور لها مبلغ أحقيتها في تصرفها فقلت إنها تصون حبها وتحرص على خطيبها وهي فتاة عادية تعلمت عن طريق الوراثة، فكيف تحتمل أن يخون الزوج زوجه والخطيب خطيبته من اجل فتاة ثم مر بذهني خاطر غريب فابتسمت على مضض وقلت حسن يا صديقتي ما حدث، إنها حسنة تسوقها الينا الأقدار لنتعاون بها على إطفاء جذوة حب أخيك المشتعلة فابثثي له ما حدث وتعالي إليه بالخطيبة في جو أنقى وأطهر، دعيه يظن بي سوءا فقد يذهب ذاك المنطق بعاطفته فينساني وهذا ما أريده... لقد ابتسم القدر للخطيبة بسمة عريضة أتمنى أن تظل و ضاءة حتى تشيع على قلب الخطيب فيحبو خطيبته بالحب والولاء. وظللت دائبة على الصمت لا يعنيني غير أن يمر اليوم فأحمد الله أن نقص من عمري يوما، ومللت كل شيء حتى الكتابة والقراءة والرسم والموسيقي وعدت ارجو ان يقيم بيني وبين الخطيب سدا منيعا، وعلمت فجأة عن طريق الصديقة أن أخاها سيغادر هاته البلاد إلى فرنسا للاستشفاء وقد صح عزمه على السفر بعد أيام قلائل وأهابت بي لتوديعه وبعد حديث ملح وعدتها بالذهاب على شريطة أن يكون ذلك على المحطة ليكون الوداع قاصرا على تحية عجلي فلا أضيف إلى هموم الخطيبة هماً جديداً ولا أوقظ في نفسه مشاعر قد تكون أوت إلى الرقاد. وحان موعد سفره فتوجهت لتوديعه وراح يسعى إلى متباطئا شاحبا، ولما دنا مني تركتني أخته ولعلها تعمدت فلم أحاول الفرار حرصا على كرامته وخشية أن يظن بي الظنون.

صافحني بحرارة وشد على يدي ليضع فيها قوة عاطفة على ما أظن ثم قال بصوت خفيض

طمأنيني... أصحيح ما حدث؟

قلت في عجب

ماذا؟

قال

لا توارى... أصحيح ان الدكتور...

فأغتصبت ضحكة وقلت

أوه أما زلت تذكر؟ صدقني إن ذاكرتك قوية... لقد اغتصبها وتمتع بها فيما أعتقد!

فبانت في وجهه سورة الغضب وقال

لا... عيناك تكذبان لسانك!

قلت في بساطة

وماذا يهمك... أنت على سفر الآن فلا تهب وقتك لغيرك ودعني أقول لك أتمنى لك الصحة والسعادة هناك

قال

آه... إني غيور... غيور من الخيال، غيور إلى أقصى حد

ثم عض على شفته ومر بيده على جبينه متأففاً ثم أردف

لك الله!

قلت

لقد حدث ما حدث على غير ارتقاب، على كل حال كفاك نبل عروسك

فواري المرارة التي علت وجهه خلف بسمة قصيرة وقال

كل شيء فيك يؤكد براءتك

ثم سحب يدي فظننته يصافحني ولكنه استطرد

اكتبي لي دائما لأستمد منك قوة ترتفع بي إلى السماء فيهدأ بالي ويطمئن قلبي... اكتبي إلي ولا تحاولي صد تيار عواطفي بالحذر والتحفظ فان ذلك يشوه جلال الذكرى والحب

وكان يتكلم وكأنه يختطف الكلمات من أعماق قلبه ليسوقها إلى هينة وكنت استمع إليه على حين ظل نظري عالقاً بالأرض ثم تطفر خواطري إلى السماء فأتابعها ولم أستطع أن أرد احلامه إلى حظيرة الصد لعلمي انه على سفر وفي حاجة إلى السلوى والعزاء ولما لم اجبه سكت قليلا ثم قال

أنا واثق من انك ستحرصين على حبي وستكونين لي أليس كذلك؟

قلت

...

قال

تكلمي

فلزمت الصمت ايضا قال

كلمة واحدة اريد إن أسمعها لأستعين بها على حكم الأيام علي

وهنا جاءته العروس والشحوب يغالب ألوان التجمل وقالت

أنهم يريدونك

وقبل ان يتكلم قلت

انه يحدثني عنك

فانزوت مني ونظرت إليه لتحمله على واقعها فلم آبه وأتممت

يوصيني بك خيراً ويحتم على زيارتك والعمل على سلوتك، لأنه لا يطمئن إلى أخته لكثرة مشاغلها المنزلية

وتركتهما وسرت الهوينا وحدي بعد أن أشرت إلى الصديقة ودق الناقوس معلناً قيام القطار فمال عليه الجميع يقبلونه ويصافحونه والخطيبة تبكي من فرط التأثر، وهو سارح ببصره، يرد تحياتهم في اقتضاب، وأنا في مكاني ذاهلة، لا أقوى على النطق والكلام وفي هاته اللحظة أدركت حقيقة تصرفي الخاطئ، و تنازعتني خواطر مؤلمة، ووددت لو افديه بدمائي. اجل لقد سافر، ولعل القدر شاء ان يسخر مني، فسلبني هدوء نفسي، واطمئنان روحي، وبات قلبي خافقاً وثابا كأنه يرغب في الفرار إلى حيث لا أدري! وفي دقيقة واحدة، تنازعتني رغبات عديدة، بين الحب والبغض، والرغبة والكبت والمتعة والحرمان، وظللت هائمة في فضاء هاته الرغبات أحلق في السماء آنا، وأهبط الأرض احيانا، أود كل شيء ومع ذلك بي عزوف عن أي شيء! والعجيب ان الأيام راحت تمر بي متشابهة مملة وانية؛ وشعوري يزداد قوة وغموضاً ولهفة؛ وأنا احترق تحت نير مشاعري وخواطري؛ وتبدو لي الأحلام التي ألفتها وضاءة؛ قاتمة والأخيلة التي تراودني متحركة باسمة؛ ساكنة واجمة! كما كانت عواطفي احيانا تتلاشى خلف ضميري الذي يضيء أمامي وجه الحقيقة فأراها على غير ما عهد بها حزينة كئيبة وأري طيفي في زاوية القدر أمامها وهي حياله هادئة، تود ان تخنقه لو استطاعت لتفسح لها الطريق؛ ثم أرى طيفي يتضائل امامي وأشعر أنه بات لا وزن له أمام ناظري، وأنه لا يمتاز بشيء عن الأطياف الوضيعة؛ تلك التي تقيم سعادتها على انقاض غيرها وتشيد أمانيها على تحطيم أماني غيرها. هنا ادركت الحقيقة الواقعة الرهيبة، وتحت تأثير هذا الادراك ظللت أبكي حتى استفقت إلى نفسي، ورأيت الحقيقة على غير ما رأيت، رأيتني لم أجن ذنبا وكل ما هنا لك أني اسير في طريق لا حب مليء بالأشواك وفي مقدوري ان أنزع

عني الرخاوة واللين، فأمد يدي بقوة إلى هاته الأشواك؛ فأزيلها لأهيئ الطريق للسائرة الضالة هناك، وفي مقدوري أن أزيح من أمامها ضباب خيالها، لتبدو الحياة أمام ناظريها كما تحب وتهوى، وفي مقدوري أيضا أن أعيش في سماء أحلامي لاهية بخيالي، ما دام الله قد خلقني طليقة الروح، ثم يرتد إلى فكري البعيد، فأسأل نفسي... ترى أتسعد الخطيبة إذا شقيت أنا؟ ويفتر الغيب عن بسمة مريرة فيها التماع السخرية الخاطف، ثم يهمس إلي هذا الغيب بأن كلتينا ستعيش شقية؛ فهو يحبني ولن أستطيع أن أبادله الحب، وهي تحبه ولن يستطيع أن يبادلها الحب، ثم أسمع من وراء الأجيال صوت الشاعر يوقع على قيثارته لحنا شجيا محزنا! وتفتر شفتاي أنا أيضا عن ابتسامة ساخطة، وأضحك ضحكا هو الى الجنون أقرب، وتمر أمام خيالي صور النساء الضاحكات الباكيات اللاهيات، فأري شبه طابع على وجوههن هو بعد التفرس طابع الشقاء فتعود إلى ابتسامتي الساخطة، وضحكي الجنوني! أمقدر لهذا البلد أن يشهد سعادة امرأة سعادة أكيدة؟ أمقدر للتاريخ أن يسجل أنها وفقت في دنياها عن طريق قلبها؟ لقد عاشت المرأة طوال الأجيال شقية بعواطفها، راضية عن شقاوتها فألي متى تخضع لنير عبودية التقاليد والأوضاع غير المشروعة؟ أجل إلى متى تخضع هذه المرأة التى قضى عليها قانون الحياة بسجن القيد، فشوه محاسنها، واستذل عواطفها، حتى عجزت عن تأدية رسالتها عن طريق الكمال المطلق؟ وفي الواقع أن صحو المرأة في هذا القرن، وانتشاءها بعد طول إغفاء قد فتح أمامها أبواب الحياة الصحيحة أمام بصيرة كل إنسان، وشعر الرجل عن يقين بضرورة تحريرها تحريراً خالصا للأمومة ذاتها، فليشد الرجل إزر المرأة بقد ما يطمع فيه من سعادة وليفسح لها الطريق؛ لتخطو نحو العلاء، محطمة بيسراها أغلال الشقاء.

بعد هاته الثورة النفسية الهائلة، هدأت نفسي حيال خواطري وكدت أنسى خواطري الأليمة، وقد ظننت أن الخطيب تناسى ماضيه بحاضره، فلم يكتب إلي، وسرني هذا التصرف، إذ أدركت أن الله قد حباه روح السلوى ولكن على غير ارتقاب جاءتني هاته الرسالة

حبيبتي

ما الحياة إذا خلت منك؟ أنت ينبوع استمد منه الحياة فيحلو لي أن أعيش منه وله، أنت دنيا، وأنا عبد الدنيا وأسيرها، أنت نور، وأنا خلف النور أسير، أنت إلهة الفن وأنا فنان أعبدك، أنت قبس من عند الأله، وسأظل أرنو للقبس حتى أنال حظي أو أهلك دونه... أنت... أنت، ولا يفسر معنى أنت إلا أنت! إن قلبي معبد أنت ناقوسه فاعزفي فيه أغاريد المحبة؛ لأحظى بالجنة التي وعد الله بها عباده المقربين! افتحي عينيك الجميلتين لأري فيهما قلبي وهو يترنح كالثمل كلما بدا له كأس ثغرك الفاتن في عالم الأحلام إن الحياة هنا فرحة مرحة، ولكنها لا تهز حسي، أو ترفه عن نفسي، لأن خواطري ومشاعري لا تستجيب إلا لك ولا تستمد وحيها الا منك، وهأنذا قد بدأت أشعر بأن الحياة بعيداً عنك؛ ضرب من السآمة والعذاب، فترفقي واكتبي لي، فعسى أن يتم شفائي، فأسارع إلى كنفك الظليل ولك من الأشواق فوق ما تحتملين

أثرت رسالته في نفسي حتى لأوشكت ان تفسد علي كل ما انتويته ولكني عدت فقلت لنفسي حذار فأن ما قرأت ليس الا نزوة طارئة سوف تزول؛ ثم عن لي أن أسلم نفسي إلى الصمت، فلعله ييأس، فينصرف عني إلى خطيبته، ورغم هذا الصمت فأنه دأب على مكاتبتي بمثل هذه الرسائل المشبوبة، حتى اضطرني إلى الكتابة، فكتبت إليه رسالات موجزة فاترة لا تخرج عن الاستفسار عن حاله، وتنبيهه إلى ألا يضايقني بأحاديث الحب التي برمت بها وإذا كان ولا بد فليكتب عن المرأة هناك والفن والحرية والعمل.

ولقد علمت من أخته انه لا يكتب إلى خطيبته إلا في النادر؛ كما علمت أنه كتب إلى والدته يحتم عليها ان تعمل على التحلل من هذه الخطبة، وقد هالني حقاً هذا النبأ فحاولت من ناحيتي ان أثنيه عن عزمه؛ وهيهات ان أوفق، فقد تغافل عن هذا الشأن في رسائله إلي، كما نفذت والدته مشيئته ولكن هذه الصدمة نالت من نفس الخطيبة فأسلمتها إلى مرض شديد، عانت فيه صنوف العذاب، وألوان الآلام ولازمها شعور اليأس والقنوط من الحياة، والإنسان الغرور فقبعت في عقر دارها لا تزور ولا تزار، وأخذ الناس يخلقون حولها الأشاعات، ويرتجلون الأقاويل! ويا للمرأة البريئة من أقاويل الناس! إن تجارة الأقاويل رابحة في سوق الأباطيل وكأن النفوس البشرية جبلت على حذق هاته الصناعة! أما هو فقد ظل يكتب إلى مدى عامين، في عاطفة متأججة، وأخيراً تعطلت رسائله دون أن أعرف لذلك سبباً، ولكني أيقنت انه شفي من دائه وأكد لي ذلك، ما علمته من انه اعتزم العودة قريبا، ولعب الشك دوره إلا انه شك ضعيف، إذ خيل إلي ان الرشد عاد إليه فعرف قدر خطيبته رغم فسخ الخطبة وكثيراً

ما تعرف قيمة الشيء بعد زواله. وهنا حرت في تفهم عاطفة الإنسان أو بالأحرى في تفهم عاطفتي، فقد انتابتني حيرة غامضة وبدأت أحس أني أحببته بقدر ما دفعته عن طريقي، وكأن لحظة صحو مرت بي، فاذا بي أدرك ان القلب الأنساني دائم التطور. ولكن ماذا حدث؟ أو ليس القلب يحيا ويموت؟ ومتي استقرت النسمة في مكان؟ إن الفضاء الوسيع، وإن الرياض المليئة بالأغضان النضرة، وأشتات الطيور التي تزحم الفضاء، طلباً لغصن ترتكز عليه في اطمئنان، بيد أن هناك في زواية قصية طائراً حائراً لم يجد فننا يتشبث به أو يستريح عليه، فليبق هكذا حائراً حتى يأذن الله له بالهداية والهدوء!

٥

وجاءتني أخته ذات يوم منبسطة الأسارير وهي تقول

بشرى يا صديقتي!

قلت

خيرا

فقالت

سيعود أخي بعد أسبوع، وحبذا لو تشاركيننا سرورنا

وهنا أحسست أن قلبي يخفق خفقات تؤذن بقرب حادث جديد كما انتابني شعور غامض. يمتزج الفرح فيه بالألم! ولكني بلطف اعتذرت عما دعتني إليه، دون أن أدري سبب هذا الاعتذار، ثم اضطررت اخيرا أن اعدها بالزيارة في القريب بعد إلحاحها الشديد، ومرت الأيام وأنا اتخيله آنا راضيا عن دنياه، وآونة برما بها، ساخطا عليها، وقد وطنت نفسي على احتمال جفائه، فاني اعرف انقلاب الحب إلى قسوة أو انتقام، إذا لم ينل المحب رغائبه! وسرت حرارة عدم الاستسلام في دمائي فانتشيت إذ أحسست بقوتي وأيقنت ان المرأة في مقدورها مصارعة الخطوب، ومقارعة الاهواء ألا ان طيف الخطيبة تراءى لي واجما حزينا، فتألمت له، واشفقت عليه، ولكني

تمنيت ان يلهمه الله الصواب فيعود إلى خطيبته، فأكون قد أسديت إلى كليهما يدا، تنطق بقدرة المرأة على التضحية ومعالجة ما استعصي من الأمراض الاجتماعية، كما ان في وسعها ان تهيئ لنفسها حياة، ترتكز على الصدق، محطمة في سبيل ذلك مطامع المتطفلين، ورغبات اللاهين، وان تسعد نفسها وشريكها وشعبا بأسره! نعم في مقدورها ان تفعل كل شيء إذا عرفت كيف تصوغ كل شيء صياغة جميلة بيدها الصناع، ولكن أيكون حظ المرأة المجدة العاملة الوفية، حظ اللاهية المتبطلة الغادرة؟ وترقبت ان اسمع جوابا لسؤالي، ولكني لم اظفر بغير الصدى!

وعدت إلى نفسي اسائلها... أو ليس بد من أن ألقاه؟ فقالت نفسي بلى! لابد، قلت: ولكن أو ليس من الأصح الا أشعره باهتمامي حتى لا يتفتح قلبه عن عاطفة قد واراها الزمن؟ فقالت نفسي: في مقدورك ان تقابليه في احتشام على صورة لا تبيح له الاسترسال في أخيلته أو تعيده إلى دنيا أحلامه الماضية ولكي يعتقد أن جفاءه الكئابي وسكوته الأخير لم ينالا من نفسك، وسيان عندك كتب أم لم يكتب وأحبك أم لم يحبك بل تعمدي أمامه الاشتغال بأمر دنياك كأن هناك مالا يعمله يملك عليك حسك

ووجدتني إزاء حكم نفسي ساكتة ولأمرها خاضعة وبدت صورة الحاضر أمامي واضحة جلية، فعاف قلبي حكم نفسي وصح عزمي على عدم لقياه، حتى لا أهيب به إلى الرجوع لماض فات، ثم جرت شواغلي ذيل التناسي على هاته الخواطر، وكدت أنسى كل شيء حتى

جاءت الصديقة على غير موعد وعلى وجهها كآبة الحزن العميق والألم الغامض والاضطرام العميق.

وبعد أن استقر بها المقام ظلت ساكتة على غير عهدي بها تحاول أن تنظر، وعلى شفتيها تبدو معاني بعض كلمات تود لو تبدو ولكنها تختفي تحت تأثير مشيئتها على ما أظن

هالني أمرها وعجبت لحالها فأهبت بها لمصارحتي بما وراءها فأجابت وقد خيل إلى أنها تصوغ الإجابة، صياغة لا صراحة فيها

بي من الهم مالا أعرف سبيله ولا مأتاه...

قلت وأنا أحنو عليها

ولكنك تدركين بلا ريب موضع الألم من نفسك

فدمعت عيناها ثم قالت بعد جهد بصوت خفيض

لي صديقة لا تعرفينها، أحبها صديق لشقيقها وبادلته الحب والوفاء، وتعاهدا على الزواج لتوافق في ميولهما وطباعهما ولكن حدث أن انكشف حبها للأخ قبل أن يتقدم الحبيب لطلب يد الأخت فثار الأخ وعظم عليه الأمر وظنه جرما لا نهاية لفظاعته؛ ورد الرجل خائباً وهدد الأخت بوعيد جائر مع ان هذا الأخ نال من عذاب الحب أقصى ما يناله امرؤ وكان يمثل دور غرامه على مرأى من أخته فأساء إليها من حيث لا يدري إذ فتح أمامها باب العاطفة وأراها

أضواء الحب وظلاله، وأشعرها سحره وجماله، وها هو اليوم ينكر ما للعاطفة من سلطان

أدركت حقيقة قصتها من خلاصة حديثها وأحسست أنها تخجل أن تبوح بكل شيء وقرأت في عينيها صراخ قلبها الهائم، وضجيج روحها، وعذاب نفسها فقلت مشجعة

أتراها أنت؟

قالت بصوت المواربة

لا... لست أنا!

قلت وأنا أحنو عليها

وهل الحب جريمة؟ أقسم أنك!

فارتاعت الفتاة وفاض بكاؤها واضطرت حيال عطفي أن تصرح بأنها هي... قلت

وما نتيجة عسف أخيك؟

قالت والحزن يملأ صوتها

يحول بين الزواج...

قلت

وما وجهة نظره؟

قالت

تبادل الحب بيننا فأنه يعترف أن تصرف صديقه خيانة له وتصرفي خيانة كبرى لا مبرر لها

فضحكت في تهكم وقلت

يا الله أيحلل الإنسان لنفسه ما يحرمه على غيره؟ كان يجدر به أن يتعظ بنفسه

فملكتها كبرياؤها ومسحت دموعها والتمع في عينيها ضوء الارتياح وقالت في عزم

لا فائدة من تعنته... أنا له وهو لي... مهما قامت الحوائل بيننا فلن يستطيع الإنسان ان يفرق بين القلوب التي جمعها الله تحت شريعة الحب والوفاء... سنتزوج سنتزوج...

أعجبني في الحق تمردها لأنه يثبت أن لها نفساً قوية حرة ولكني واريت إعجابي وقلت

يا صديقتي رويدك ففي مقدورك أن تحملي أخاك على احترام ميولك وتقدير عواطفك بالصبر والاناة والحكمة، وحاذري ان تشوهي رغباتك بتصرف لا يرضيه... أنا واثقة انه سيخضع لك في النهاية ويحقق أمانيك... علها تجربة يريد أن يختبر بها قوتك وأرادتك فكوني قوية أكثر مما أنت عليه الآن

وهنا شئت أن أخرج بها من دنيا همومها لأسري عنها فقلت

ولكن كيف حال أخيك؟

فأغمضت جفنيها وقالت

قد جاء بخير ولكنه عاد من الغرباء

قلت وأنا أتكلف الضحك

وهل كنت تظنين أنه سيعود كما سافر؟ ألا تعلمين ان المكث في بلاد كهذه البلاد وخاصة فرنسا بلد المدنية الماجنة والنور الخاطف كفيل بتغيير خلق شعب كامل لا رجل مريض؟ الرجل هناك يجنح إلى اللهو لأن الحرية أو ما يسمونها كذلك مطلوقة العنان ومن يدري يا صديقتي فقد يكون هذا المرح هو باعث شفائه، ليكن اليوم غريبا وغدا يستأنس ثم تألفون طباعة الجديدة

فقاطعتني

إنك لا تفهمين ما أعني

قلت

بل أفهم، لقد تعودت منه الهدوء والجنوح إلى العزلة واليوم جاء كم وبه جنوح إلى الدعابة واللهو

فقالت

المهم أن تأتي لتري بنفسك فأن الحقيقة مرة لا أقوى على إيضاحها

قلت

إنك تقيمين من أسوار جمودكم قانونا لا حق لك فيه أو تريدينه عابساً مكفهراً؟ لا لا إنه رجل ولا بد له من الترفيه عن نفسه الكليمة ولا يريح النفس غير الدعابة واللهو؛ ولست أعني به اللهو المجرم الطائش بل أعني به المرح البريء في غير استهتار أو عدم مبالاة

قالت

لست في حاجة إلى فلسفتك الساعة وقومي معي لأن والدتي مريضة وقد جاء ابنها بصاعقة أخشى أن تفقد نفسها معها

بعد ساعة كنا فى منزلها و قد هالنى سكون المنزل على غير ما كنت آمل ثم قادتني الصديقة إلى الوالدة فوجدتها شبه مريضة وان كانت تغالط نفسها وتحاول أن تصارع همها، وبعد أن استقر بي المقام جاء الأخ باسما متهللا، لقيني بأروع مما ظننت، فتوارت رغبتي خلف عواطفي ولم أبخل عليه بتحية خالصة، أما هو فلم يجب، ولعله اكتفي بتقبيل يدي في سكون، قلت في نفسي: هذه أول ظاهرة غريبة وشئت أن أغالط أخته فقلت بنغم فكه

هذا ميثاق الشفاء أما زلت تذكر وديعتك؟

فلم يتكلم وحاول إخفاء دمعه في مآقيه، ثم قال بصوت كأنه آت من أعماق الوادي

إن أحسن ما أمتاز به هو ذاكرتي

قلت

حفظها الله لك وجعلها مستودعا لكل ذكرى طيبة

قال

وذاكرتك؟

قلت

عيبي مركز فيها ولعل الله يوم كون مواهبي، كونها على ألا ذاكرة

قال

احمدي الله على ذلك فلو كانت ذاكرتك قوية لكان لك شأن آخر

قلت

ومن أدراك؟

ومر بخاطري طيف الخطيبة فاستطردت

يهمني أن تركز ذاكرتك على الواقع الجميل لتهيب بنفسك دائما إلى الحياة الوديعة

وهنا بدأ أمامي كالطفل يحاول إن يكتم أمراً في نفسه فتفضحه عيناه، فأدركت ان هناك أمرا يخفيه ولم يفتح فاه بل انحني أمامي بخشوع وخرج يجر ساقيه جراً، والتفت إلى الصديقة فوجدتها تحاول إخفاء دموعها فقلت

أتسمحين أن أساير أخاك برهة لأتعرف دخيلة أمره

فتململت وأرخت جفنيها في صمت ثم قالت في لهجة القانطة

لا يا صديقتي! دعيه يتصرف كما يحلو له

وفجأة دخل الأخ يتعثر وعيناه ترقبان الأرض وقد ارتسمت على شفتيه صورة ناصلة صفراء، دخل وبجانبه فتاة أجنبية ناهزت الثلاثين من عمرها هادئة المظهر ثقيلة الظل، ثم وقفت حيالي ولعلها كانت تستطلع الحياة المصرية من عيني بنظرة عميقة فاحصة، قدمها إلي وبوده لو يتراجع! وفي مرارة فتح فمه كمن يحاول أن ينطق بحكم الأعدام وقال مشيراً إليها

زوجتي

فشملنا جميعا سكون رهيب وكدت أن أفقد إدراكي لولا أن الله أدركني بقوة من لدنه، فاغتصبت بسمة وواريت عواطفي وقلت في هدوء

أهنئوها

فغمغم بصوت مرتجف يحفه العجب

وحدها؟

فصمت برهة على مضض، ثم قلت بلهجة الحزن والأسف المكبوح

أجل وحدها... أهنئوها وأعزيك

فغمغم

أهذه تهنئتك؟

قلت

تهنئة يحفها العزاء، هل سمعت أو رأيت فرحاً نهايته قاتمة، هناءة نفسك ربما... وعزاء شعب

وظل نظري عالقاً به والشرر يتطاير منه، ونظرت إلى الفتاة وكانت لا تعرف العربية وكلمتها بالفرنسية كلمة موجزة تشرفنا، وانحنيت في تهكم لا في إجلال ولكنها ردت التحية في برود فخشيت ان ينالنى من فرط الجزع ما يشوه جمال أحلامهم فاختطفت نفسي من بينهم وخرجت مسرعة وأنا اعتقد أنني سأغدو قريبا حطاماً في حطام، فكل خواطري كانت تحوم حول تصاريف القدر، وخضوع الإنسان لحكم القضاء وتساءلت أتري ذلك التصرف قدر عليه إن يكون ضحيته أم تلك مشيئته التي اختارها لنفسه؟

قلت لنفسي عندما هدأت خواطري: وما عاقبة هذا الجنوح الأليم. في غير حق مشروع وما لي أنا وغيري؟ وهل خلت نفسي من الهم حتى أضيف إليها هماً جديداً. وتنفست الصعداء وقالت: يا لك من شاعرة!

وهالني أن تهينني نفسي فوقفت أمامها قائلة: أنا للرحمة خلقت، وإن مهمتي تخفيف البؤس، ورعاية الشقي؛ بيد اليمنى أمسح دموع المحزونين، وباليسرى أفتح بصيرة المتقاعدين... أنا صديقة كل منكود الحظ أنا خلقت للحياة ولم أخلق لنفسي.

واطمأننت لروحي وعادت إلى مدامع الأسى، ومر بخاطري طيف الخطيبة المغبونة؛ آه! لو أنها كانت فتاة طيش ودعابة ما جزعت لها، فالرجال ينشدون هاته الغواني في كل مكان... ولكنها فتاة قلب فواأسفاه! لقد استودعت الله آمالها وأودعت في ذمة الشيطان مصيرها!

يا إلهي لم خلقت الرجاء في قلب المرأة، وخلقت صولة الفناء ليثمر الخيبة والمرارة؟ لم خلقت لها طريق الحرية وسيرتها في طريق العبودية؟ لم خلقت للرجل جناحين طويلين يحلق بهما في الفضاء كما يحب ويهوي على حين خلقت المرأة بجناح كسير فأقعدها عن الهوى الطليق؟ لم وضعت في حنجرتها أوتار النغم الطروب، وقيدت فاها بالنغم الحزين؟ لم علمتها العطف وقيدتها بالضعف؟

رحماك يا رب فقد خلقتها قوية رحيمة شفوقة محبة! - لست أكفر - ولكن النظم والتقاليد غير المشروعة. علمتها الضعف والاستكانة، والتردد والمواربة، كما قيدتها بأغلال عتيدة، وكل من حطمت أغلالها

على ضوء الحق والواجب كانت في شرعهم مجرمة أثيمة! لست أريد أن تستهتر المرأة وتلهو، ولست أرمي أن تتلاعب بعطفها وحبها وتقذف بهما كما يرجو هواها، ولكني أريدها ذات كبرياء وأنفة، وأن تصون قلبها ولا تفتحه إلا لمن يقيم له صلاة التعبد والأيمان، ويعرف أن الصلاة فيه صلاة للخالق.

ولست أريد أن تماثل الرجل قوة أو تزاحمه في ميدان عمله الخارجي لغير غاية لاجئة بل أريد لها الحياة الكاملة السامية في بيتها إن كانت أما، والعمل الشريف لمنفعة وطنها إن دعتها الرغبة إلى العمل. أريد لها السمو المطلق فتكيف جمالها بروعة روحها وتجمل روحها بسحر تثقيفها وتوسع من ثقافتها بدوام دراستها عن طريق الفكر الخصب والاطلاع الواسع، وبالجملة فأني أريدها مرتفعة بنفسها إلى أسمى مراتب الجمال، محلقة بروحها في سماوات الكمال؛ لتشعر الرجل الحياة الحقة في كنف بيتها المنظم الجميل؛ وتشعر العالم بقدرة المرأة وقوتها على الأنشاء والتعمير!

٦

حدثت في منزلنا حركة غير عادية وبعد التقصي علمت أن هناك سكاناً حديثين فدفعني حب الاستطلاع إلى معرفة ما يمكن معرفته عنهم. ومرت بعض الأيام دون أن أعرف غير اسم الزوج، أما اسم زوجه فلم أعرفه، وبينما أنا صاعدة على الدرج عصر يوم حانت مني التفاتة، فأذا بفتاة قد عرفتها من قبل، هي بعينها الخطيبة. تحيرت في أمرها أتكون زائرة أم صاحبة المسكن الجديد؟ وصافحتها فلقيتني لقاء حاراً لا شائبة فيه. وفرحت كثيراً حينما علمت أننا نقطن منزلا واحداً وتزاورنا بعد ذلك وتأكدت بيننا عري الصداقة، وسرني أنها سعيدة في زواجها موفقة في حياتها وأن زوجها الطبيب يحبها حباً لا نهاية له، ويعمل ليلا ونهاراً على راحتها وإسعادها وهو كما تعترف طيب القلب صافي النفس له مكانة بين قومه، وأظنها نسيت ماضيها فلم تحدثني عنه كما حاولت أنا أيضا تناسيه، وكم أشعر بالسعادة الحقة عندما أراها في بيتها مقبلة مدبرة، راضية عن دنياها، تسعى جهدها في سعادة زوجها وتخلص له الحب، وتبادله الوفاء. لقد أدركت من سلوكها أن المرأة إذا واتاها الحظ برجل يحبها ويعمل على إسعادها أهاب بها ذلك للرضا النفسي فتمنحه وداً بود واخلاصا بأخلاص، وتخلق له من دنياه المحدودة دنيا من السعادة لا نهاية لها، وحمدت الله الذي جعل آخرة دنياها أفضل وأجمل من الأولى، ومرت الأيام آخذاً بعضها برقاب بعض، وفي صبيحة يوم دخلت علي الخادم معلنة قدوم

صديقتي القاطنة بالمنزل فراعني اصفرار وجهها وفاجأتني وقد أنساها الحزن على ما أظن السلام علي قائلة

هل جاءتك؟

تعني الصديقة شقيقة خطيبها بالأمس، قلت وقد تملكني الاضطراب الجازع

لم أرها منذ أسابيع

فاستوت واقفة والدموع تنهال على وجهها في غير تمهل ثم فرت من أمامي وأخذت أسأل نفسي ترى أين ذهبت؟ لقد ساقها الحب إلى··· بلا ريب! ولكنه تصرف شائن. وتملكني الهم والقلق طوال اليوم، وفي المساء ذهبت اليهم مستعلمة عنها، فعرفت أنها لم تعد، وأنها خرجت في الصباح وهم نيام، على غير سابق إشارة أو إنذار.

ودخل علي الأخ وأنا أحادث الوالدة فوقف أمامي في هدوء، وهذه أول مرة ألقاه فيها بعد زواجه. وما كاد نظري يقع عليه حتى واري نظراته خلف بسمته، واستويت واقفة وقد تملكني شعور غامض حزين، وبدا لي أنه لا يمتاز عن المجرم بشيء، فعليه تقع جريمة الأخت، إن كان ثمت جريمة! ولكن الوالدة حملتني برجائها على المكوث قليلا لأنها تكاد تجن من هول الصدمة، أما هو فانثني أمامي وقال بصوت الثائر

في أقرب وقت سأعرف مقر وجودها، وستنال عقاب هذا المسلك المعوج

قلت وأنا أواري همي

ولكنها لا تستحق!

فزاد غضبه وقال

أتقرين هذه الخطيئة؟

قلت

وهل تظن أنها خطيئة؟

قال

نعم،

قلت

اهدأ أولا، ثم فكر في علة تصرفها

قال

لا سبيل لغفران جنايتها!

قلت

إنها لم تجن ذنباً، كل مافعلته أنها تنتقم لنفسها

قال

تنتقم؟ يا للعجب! وممن؟

قلت

يبدو لي أنك أسأت إليها

قال

أنا؟ محال! قد حافظت على كرامتها وشرفها

قلت

إنها ليست من الطيش حتى تعجز عن صيانتها فقد ناهزت العشرين وفي مقدورها أن تكيف حياتها عن طريق عقلها

وبدت الوالدة غير مرتاحة لهذا الحوار، لما كان يبدو من التأثر على وجهها الحزين وكأنها أرادت ان تضع حدا لحديثنا فقالت

قم فاذهب إلى بعض أقاربنا أو صواحبها، فعساك أن تلتقي بها هناك

فضحك الأخ في تهكم لاذع ثم قال

إنها ليست هناك، إنها عند فلان بلا شك، على أني بعد ساعة سأعرف مقرها وأنا هنا لم أبرح مكاني فاطمئني

ولكن أتستطيع الأم أن يطمئن قلبها لهذا الكلام؟ قلت

قد فهمت من قولك أن هناك صلة بينها وبين فلان هذا

فأطرق برأسه وأشار بعينيه

أي نعم!

فاستطردت

أو كنت تعلم؟

قال

بل طلب يدها فرفضت

قلت

ولم رفضت؟

لأنه يلعب بقلوب العذارى!

قلت

ولكنك تزوجت وصلح أمرك بعد الزواج فيما أظن

فنظر إلى نظرة خاطفة، وقال

ماذا تعنين؟

قلت

أعني أنه على طرازك، والذي أباح لك الزواج، أباحه لغيرك

فقال في تهكم

إن حمية الدفاع عن ابنة جنسك تشوه جلال الحق

قلت

أنا ها ها ها ها! أنا؟ قد أكون... أو تعرف الحق؟ لو أنك تعرفه لما عودت نفسك ظلم غيرك وأهلك، يا إله السماء. أي دين من الأديان يحرم الزواج العاطفي

ثم ازداد صوتي صرامة وقوة وأردفت

يا للظلم! وهب الله الوالدين سلاح الرعاية فاستبدلاه بسلاح التقييد، أو ليست الحياة الزوجية إلا حياة ائتلاف وتعاون، فلم ترغم المرأة على هذا الائتلاف، وكيف ينتظر منها سعادة وهي تشقى تحت نير أحزانها وحرمانها، كيف تطالبها بالعدل وهي تسام العسف، وكيف تمنحها النور وهي تسير في الظلام؟

من لي بمن يسن تشريعا إجباريا يهيب فيه بالآباء إلى رعاية عواطف بناتهن واحترامه ميولهن؟ نعم يجب أن يعمر قلب المرأة بالحرية. ليهنأ الرجل بالحياة الجليلة، وإن امرأة واحدة مظلومة لتجر على البلاد ذيل الشقاء، فامنحوا للمرأة الأنصاف والرحمة تعطيكم الحياة مفترة عن أعذب البسمات!

وهنا بلغ مني الألم مبلغاً، فصمت قليلا على حين جلس هو مطأطئ الرأس تبدو عليه الكآبة الخرساء، وشئت أن أزيد همه فاستطردت

والله لو استطاعت المرأة أن تنزل على الرجل غضب السماء لما تهاونت

فاعتدل، وبصوت متلعثم قال

ولكنها من حسن الحظ رحيمة..

قلت

وهذا عيبها! أجل عيب المرأة في رحمتها وحبها الجم

فازداد اصفرار وجهه وقال بصوت مرتجف

لو كانت المراة كذلك؛ لكانت الحياة جنة خلد للمخلصين ولكنها واأسفاه لا ترعى حرمة الحب، بل هي تستغل عاطفة الرجل ووفاءه لتستعبده!

قلت

إنك تتكلم بلسان رجل يلعب بقلوب العذارى على حد تعبيرك، وهذا الرجل يحب أن تقيم المرأة سداً منيعاً بينها وبينه، هذا أنت! أو تستحق حب امرأة؟ لو كان قلبك يخفق بحرارة لعرفت كيف تحترم العاطفة على الأقل

قال

لعل صرامة الحب علمتني كيف أتحداه

قلت

ولكن الحمامة الوديعة جبلت على الخضوع لحكم العاطفة مهما أساءت إليها، أما النسر القوي فسعادته هي الكفاح في سبيل مالا طائل وراءه، ويا بيته كفاح يمت إلى الفضيلة بسبب!

لقد نسيت حزن الوالدة ولم ينبهني إلا ما أصابها من إغماء فقطعت الحديث وتحولت إليها أرفه عنها ثم استأذنت على نية أن أذهب، لأبحث عن الصديقة عند صواحبها، وذهبت إلى كل من تعرفها كزائرة، محاولة أن أعرف مقرها، ومرت الأيام تتبع الايام والصديقة تتقاذفها دنيا مجهولة، وأسرتها في أشد حالات الألم والحزن والقلق، وأخيرا وصلتهم رسالة منها تنبئهم أنها عند خالة لها في بلد بعيد، كما وصلتهم رسالة من خالتها تخبرهم فيها بمرض الفتاة، وبضرورة الحضور. وبعد أن سافرت الأم لحق بها الأبن، وكان هناك حبيب الفتاة فقام بينه وبين الأخ شبه عراك نقاشي أدي في النهاية إلى الخضوع لمشيئة الأخت، وعادت معهم وتم زواجها، وذهبت يوما إليها لأهنئها، فلقيتها على أحسن صورة أرجوها لها، كما وجدتها فرحة إلى أقصى حدود الفرح، تود لو يفيض سرورها على العالم بأسره، ولما خلوت بها، حدثتني عن سعادتها وآمالها فلمحت ظاهرة الحلم تسيطر عليها حتى أنستها الواقع الرهيب واقع الحياة المنزلية الخطرة، ولم أر غضاضة في مصارحتها بما في نفسي فقلت:

يا عزيزتي يهمني أن تقفي حياتك على إدراك الواقع فتفرقي بين متعة الخيال، وحقيقة الواقع، فأنت ترين أن طبيعة

الزوج أو الزوجة، غير طبيعة الحبيب اوالحبيبة فالأول يكيف كل شيء بعقله والثاني يكيفه بقلبه، وشتان ما بين العقل والقلب، ومهمتك الآن تركيز أخيلتك على محط عقلك، لتعرفي كيف تصونين نفسك، واذكري دائما أنك قد ولدت من جديد، فمن الخير أن تأخذي من الحياة بقدر ما يسمح به ذهنك الكبير، وحاولي أن تكوني لزوجك كما يجب أن تكوني له، واسعي جهدك في استبقائه بجوارك، راضية عن نفسه وعنك على مدى الأيام، ولا بد أن تخلقي كل يوم في بيتك منهاجا جديداً يشعره بتجديد الحياة، فأنها لعملية تحتاج لمهارة؛ ثم حاولي الأشراف دائما على مهامه بنفسك؛ ليشعر بالسعادة الحقة بفضلك، وحاذري أن تفتحي قلبك للشك، إذا بدا منه ما يريبك في حياته الخارجية؛ فما فيها من متاعب وعنت كاف لأرهاقه، فلا تضيفي إلى همومه هماً، أو إلى متاعبه تعباً، وانظري إليه دائما بعين صافية لا يشوبها ملل ولا سأم، فذلك أدعي إلى إشباع قلبك وإسعاده ووطني نفسك على أن تحرصي على سعادته وهناءته، وثقي أن هناك فارقا بين اليوم والغد إن دنيا اليوم هي دنيا الأحلام والخيال، ودنيا الغد هي دنيا تحقيق الآمال. ثم حاذري أن تخلطي بين تصرفك الطائش وذهنك الناضج، فاسبلي الستار على ما فعلت حتى ينساه زوجك، فقد يذكره عندما يفيق العقل من النشوة؛ وقد يعظم الأمر في ناظريه، فيدرك سوء تصرفك فيحز ذلك في نفسه

ولقد كنت أعلم ما قام بسبب هذا الزواج القهري، من النفور المكبوح بين زوجها وشقيقها، فخشيت أن يؤثر ذلك لو دام في علاقتها بزوجها، فقلت

يجب أن تذكري أن عاطفة الرجل تختلف باختلاف تصرف المرأة، فانتهزي دائما أوقات الصفو بينك وبين زوجك وشقيقك، واعملي على التقريب بين وجهتي نظريهما ما استطعت، مستعينة على ذلك بما كان بينهما في الماضي من أواصر المحبة والأخاء، فعلى ذلك تشيدين صرح سعادتك الزوجية، وتجبرين كليهما على زيادة محبتك واحترامك، وبهذا تضربين أحسن الأمثال على يقظة المرأة المصرية، ولباقتها في تأدية رسالتها و رسالة الألفة والتعمير والإنشاء.

وكأن هذه الصراحة لمست منها موضع الداء

فتململت ثم قالت

لقد حاولت في ذلك جهدي، واستعنت بكل من تحسن الاستعانة بهم؛ حتى لأوشكت أن أفشل!

قلت

تفشلين؟ لا لا! أرجو ألا تسمعيني هذه الكلمة الخائرة مرة أخرى، فالمرأة التي تهز المهد بيمينها، لا تزال تهز العالم بيسارها، يجب أن تعملي! يجب أن تعملي! يجب أن تعملي!

عرفت الصديقة كيف تهيئ منزلها الجديد ليظل أبداً عامراً وعملت على تحقيق آمال زوجها وأشعرته السعادة الحقة والنعيم المقيم. أما هو فقد جعلها خاتمة الحبيبات كما جعل الله محمداً خاتم المرسلين. واتخذ منها الأخت والابنة والصديقة والزوجة والحبيبة، ونسي دنياه بها، وراح يهيئ لها من لدنه عرشاً وطيداً من الراحة الأبدية تتكئ عليه. وقامت بدورها في أشباع رغباته المعنوية والحسية وأثبتت له أن المرأة بأخلاصها وتضحيتها كفيلة بأن تهيئ لزوجها دنيا مليئة بالنعيم والغبطة والسرور!

ومادامت الميول بين الشريكين موحدة، والعواطف متبادلة والرغبات متقاربة، فالسعادة محققة... ولقد زرتها يوماً فأحسست أن السعادة تسري منها إلي، وشعرت أن ضوء الهناءة يشمل بيتها حتى صورتها؛ رأيتها ازدادت فتنة وسحرا وجمالا، واكتمال أنوثة. ولعل ذلك من فرط عنايتها بنفسها وصحتها وشئونها، مرضاة لزوجها.

وفجأة جاءها شقيقها على غير موعد لزيارتها، وكانت الأيام قد مسحت ذاكرتي صورة الأيام الخوالي؛ فلقيته كغريب لا عهد لي به، ولا يهمني أمره؛ ولا يعنيني شأنه ولكن شحوب وجهه، ونظراته الساهمة؛ وصوته الخفيض كل أولئك شف عن حزن مكبوت! ولما تهيأت للانصراف استوقفني قائلا

لي معك حديث

قلت وكأنه لا يعنيني

أمسيت بالخير يا صديقي

ولكنها قالت

أخي يدعوك!

قلت في عجب

أنا؟ أنه يعنيك

قال

أعني حضرتك

قلت

أفندم!

فأجلستني الصديقة في رفق، ثم انصرفت لبعض شأنها على ما أظن، وشئت أن ألحق بها، فاستوقفني وقال

أتذكرين الماضي؟

قلت

لا أذكر غير ساعتي

قال في نغم التوسل

ولكني أرجوك ألا تستسلمي لخيالك

قلت

عندما تخونني الذاكرة ينمو معها الخيال والفكر وكل شيء

قال

دعيني إذاً أذكرك

قلت

ليس هناك ما يدعو

وهممت بالانصراف، إلا أن الأخت دخلت وحملتني على الجلوس فاستطرد

أنت تعرفين أنني سافرت بغير قلب وقد سلبتنيه، ولعل الله شاء إنقاذي بعد أن فتح لي الموت ذراعية فأرسل لي هاته الفتاة ترعاني وتخدمني، ولما كنت واثقا من أن المنية سوف تواريني، لم أبخل عليها بشبه ود جزاء فضلها، وشاء الله أن أعافي، وشاءت هي أن تحبني. وقضي القضاء أن أتزوجها!

صدقيني لست أدري كيف حدث ذلك، وكأنني كنت في غفلة عميقة، صحوت على أثرها فوجدتني فقدتك فبكيت فراقك وسوء طالعي. إنها رحيمة لست أنكر، فقد سهرت على مريضا، ورعتني سقيما، فأنت ترين أني مدين لها بحياتي

كان يتحدث بينما كنت أداعب منديلي آنا، وحقيبة يدي آنا آخر، وكأني عنه لاهية، إلا أن كلماته كانت تحز في سمعي!

وبعد صمت قلت

وماذا يهمني أنا من هذا الحديث؟

فقال بصوت حزين

أريد أن يهمك، أعني أريد أن تفكري بفكري، فقد عانيت من الهم ما لا قبل لي على احتماله!

قلت في سخرية

ولم، وتلك مشيئتك ورغبتك، وكيف نتألم من تصرفك؟

قال

لا تضيفي إلى همومي المتكاثرة هم قسوتك

فقاطعته الأخت

رفه عن نفسك فلا شك أن الله سيجازيك خيراً، فقد أحسنت بتخليك عنها

فذعرت وقلت

تخلى عنها؟ كيف حدث ذلك ولم ومتي؟

فقال

نعم منذ أسبوع، وقد غادرت هاته البلاد

قلت وقد ملكني الحزن

يا لظلمك! قد تحملت المسكينة في سبيل تمريضك كما تقول كل شيء، فهل هذا جزاء الأحسان

فأجاب بصوت مذبوح

لقد شوهت كرامتي، وهتكت شرفي، وتلاعبت بعواطفي، وقضيت على مالي، وجعلت اسمي مضغة الأفواه

وقد أحزنني نبؤه، وإن كنت تظاهرت بالرضا، وقلت

هذا نتيجة تصرفك بلا مراء

قال

الآن أدركت!

قلت

لقد تعودت من الفتاة المصرية الجمود! فليس بعجيب أن تمني من الغربية بالأباحية التي ساقتها لك عن طريق الرعاية والحب، وانه لحب زائف، ابتدعته وحاكته بمهارة، وفاتك أنها ما فضلتك على أبناء جنسها لهوا ولعبا! ولم لا تفضلك وهي تأخذ من المال ما ترجو، وتلهو كما يحلو وتتسيطر عليك وعلى أمثالك تسيطراً لا حد له، حتى إذا عرفت أن يدك صدأت وان جيبك قد خوي، لفظتك واجتوتك، وأنكرتك

وأشقتك، هذا إذا لم تتركك مضرجا بدمك، والآن هل عرفت كيف تفرق بين حب الفتاة المصرية والغربية؟ إن الأولى تحب الرجل لذاته. والثانية تحبه لمادته! إن الأولى تحبك زوجا. فقيراً أو غنياً، وسيما أو دميما. أما الثانية فتتعشقك غنياً وسيما. أنها تحب فيك رغبتها وشهوتها، وشتان ما بين العاطفتين، لقد تقدم إليك الحب الأول باسطاً إليك أجنحة من السعادة عن طريق فتاة مصرية طاهرة بريئة، فغدرت بها دون ذنب، فشاء القدر أن يجازيك شراً بشر، وغدراً بغدر!

ولم يدعني أتم قولي، بل قاطعني قائلا

لو رأيت الفتاة الأجنبية في بلادها كيف تدير بيتها، وتربي أولادها لعجبت هي تجعل من بيتها فردوساً مليئا بالمتع مع الاقتصاد الوفير، وذلك عكس الفتاة المصرية التي تسرف في مالها ومال زوجها لتشبع رغباتها، ومع ذلك لا توفق في إدارة بيتها كما تعجز عن تركيز حياتها وذلك هو ما خدعني وأغراني بهذا الزواج، ومع ما نالني فيه، فأني لا أنكر حسن تدبير المرأة الغربية لبيتها

فتملكتني الغضب وآلمني اعترافه فقلت

أتريدون لأنفسكم السعادة على أنقاض وطنكم المذبوح أيها الأثرون؟ وهب الفتاة المصرية كما تقول سيئة التدبير، أفعجزتم أو عجزنا عن الأصلاح؟ إن المرأة الغربية تعلمت

الاقتصاد، وحسن التدبير، عن طريق أبيها وأخيها، فالرجل هناك لا يقامر بماله في سبيل الملاهي والمراقص، ولا يضحي بعصارة مواهبه قرباناً على مذبح الأغراق، ولهذا تنشأ الفتاة الغربية نشأة اقتصادية منذ الصغر!

وحسب الرجل المصري فخراً أن يضحي بشطر من وقته في سبيل إصلاحها، فمنه وحده تنتظر المغامرة في سبيل الأنقاذ، ثم هبك تزوجت فتاة جاهلة ساذجة، أو ليس في مقدورك ترويضها على ما تحب وتهوى؟ وهبها كانت متعجرفة، أفلا يكفي قليل من حكمة الرجل، ليكفكف من غطرستها، ويفل من حدتها؟

ألا فلتعلم أن شعورك باليأس من مستقبل الفتاة المصرية وإصلاحها لا يستند على شيء، وان هذا الشعور الذي يغري بالنوم عن الأخذ بيد الفتاة إلى حيث مركزها الصحيح من المجتمع، ليسيء إلى وطنكم، ويشوه من جلال جهادكم، وإنه لسوف يعطي عنكم لأبنائكم، أسوأ الأمثال، على أنكم كنتم تميلون إلى الدعة والخمول، ولا تجشمون أنفسكم عناء! وإن الفتاة المصرية، طالما ناشدتكم، أن تدفعوا بها في سبيل النور، فقذفتم بها في مجاهل الظلام، وأن تعلموها كيف تسمو وترقى في سماء الحياة، فقصصتم جناحيها وأسففتم بها إلى الحضيض!

ولست أدري إلى متى تسومون المرأة العسف، وعلى شفاهكم بسمات الدعابة؟ لا أعرف حياة مشوهة أضل من حياتكم!

لقد تأففتم من المرأة السجينة. وناديتم بالحرية وطالبتموها بالثقافة العملية فلبت نداءكم، ونالت من التعليم والثقافة والفنون حظا تغبط عليه، ولكن سرعان ما زاغت أبصاركم في الفضاء تحلقون بأجنحة الغرور الكاذب، والوهم الفاسد، وبقيت العذارى في طريق الحياة حيارى!

يا سبحان الله، ما بال صوتكم لا يكاد يبلغ حناجركم حتى يرتد في جنبات ضمائركم حائراً؟

وبينما أنا أتدفق في ثورة المؤمن قاطعني قائلا

والآن؟

قلت

والآن لهف نفسي على "الطائر الحائر "يتردى بين المعاطب والمخاطر؟! إن الريح تعصف ولا تحاذر، والغصن يتكسر دون كاسر!

لهف نفسي على العذارى، يتعذبن تحت نير الظنون أساري رموهن بالشوائب جهارا، فأتخذن الحرمان لهن شعارا؟!

قال

ولكنك...

قلت

ناقمة عليك وعلى الرجال جميعا من أجلك!

قال

ولكنك أخت عطف

قلت

على المغبونين لا الغابنين!

قال

وأنا منهم

فضحكت في تهكم مرير وقلت في عجب

أنت؟ إنك لقوي جائر، ولكنك واأسفاه لا تخجل من أن تصف نفسك بما ليس فيك، طمعاً في الوصول إلى غايتك

ثم شعرت بالثورة تكاد تعصف بكياني، والأسى يوشك أن يفعم نفسي، فاستويت واقفة، حيث ودعت الأخت وألقيت عليه تحية عجلي؛ كأن لم يكن بيننا تعارف من قبل!

... ...

ومرت الأيام سراعا، وحالت شواغلي دون زيارة الصديقة وانتقلت أسرتنا إلى بلد آخر، فانقطعت عني أخبار الصديقة وشقيقها، وأسدلت

أنا أيضا الستار على هاته القصة، فلقد سئمت نفسي مناظرها المتناقضة؛ وحوادثها المثيرة.

ولقد مر على عامان، وأنا ساكنة إلى دنياى، راضية عنها، لا يشغلني من هم هذه الحياة إلا هم نفسي، حتى اضطرني الحر اللافح، إلى النزوح إلى المصيف، ترويحاً للنفس وطلبا للاستجمام والحياة في المصيف غيرها في كل مكان إنها حياة فرحة مرحة، يكاد يفضل اليوم فيها عاماً بما يتوالى على مسرحه من كثرة المرائي وتبانيها وشذوذها، هذا الشذوذ الذي ينجم عن اختلاط الطبقات؛ واجتماع المتناقضات، ولقد وقفت على الشاطئ في أمسية من أمسيات الصيف الرائعة؛ أشاهد الشمس وهي تهدف إلى الماء ملقية بنفسها، بين أحضان إله البحر، الذي يودعها في الصباح ليلقاها في المساء. كما وقفت أتأمل الأمواج. تتجمع من بعيد كالجبال. ثم تترامي على أعطاف الصخور، فأذا هي مستحيلة إلى رشاش سني. وبينا أنا أشبه في نفسي فعل الأمواج مع الصخور؛ بالأم تغضب على ابنها، ثم تهم لتعنفه. أو تؤذيه فلا تكاد تقترب منه حتى تستحيل هذه الغضبة. إلى رشاش من الرحمة والحنان. ووميض من الأشراق والابتسام. أجل بينا أنا مأخوذة بروعة البحر، وجلال مشاهده؛ طرقت أذناي عن قرب ضحكة ساخرة، يوقعها صاحبها على أوتار الخلاعة والاستهتار، فالتفت ورائي، فإذا بي أواجه فتاة جملتها يد الصناعة، تسير الهوينى بجانب رجل هزيل الجسم شاحب الوجه. لقد عرفته... إنه " الطائر الحائر" صديق الأمس. واستدرت بوجهي ثانية إلى البحر، كأني لا أعرفه ولكنه عرفني كما بدا لي من نظراته. ولعله خجل أن يحدثني ومعه رفيقته. وحمدت الله على أن تعود الاعتداد بالنفس، الا أني لم

اكد انتهي من وقفتي، وأخطو إلى الأمام منصرفة حتى طلع علي ذلك "الطائر الحائر" منفرداً، وبادرني بقوله

أأنت هنا؟

فاجبت في جفوة

نعم

ثم أسرعت الخطا وتركته جانبا!

وفي مساء اليوم الثاني، عدت إلى مكاني على الشاطئ، وبينما أنا مستغرقة في تأملاتي وأحلامي، لقيتني أخته لقاء حاراً، وأفهمتني أنها علمت بوجودي من أخيها، وأنها قد بحثت عني هنا طويلا، وبعد أن خضنا في ألوان من الحديث وضروب من الذكريات، حدثتني في مرارة عما آل إليه حال أخيها من سوء، وأن يأسه وبؤسه، قد ملآ فراغ قلبه، وأنه قد برم بالحياة والعمل، كما انقلب مستهتراً، استهتار من يود بعثرة وقته على أية صورة! كانت تتكلم من أعماق قلبها، والدموع تطفر في غير إمهال، فحزنت حقا لحزنها وتصورت مصير شقيقها رهيبا!

يا الله إن نكبة المجتمع الخلقية، تتولد من قنوط شبابها إن الشباب لا يسف، ولا يستسلم لنزوات نفسه الأمارة الا إذا جفت دونه مناهل الخير! إنه مرض بلا مراء، ولكن مصدره سوء تصرف الشاب وجنوحه إلى الحيرة العاطفية، والقلق الوجداني، فلو أنصف الشاب نفسه، لركز خواطره وأحلامه على محط الواقع، وحكم قلبه وعقله معاً في تكييف حياته المستقبلة، ولا سبيل إلى سعادة الرجل إلا إذ تسامى

عن الرغبات الجامحة، ولو علم أنه ليس وراء العبث العاطفي، إلا كل شقاء وفقدان للرجولة العزيزة، لكف عن هذا الأسفاف!

وشاء ذلك الشقي إن ينتقم من المجتمع، الذي قوض صرح سعادته، وأتى على آماله، وأصابه في صحته وماله.

وكثيراً ما يدفع الأخفاق في الحياة الأشقياء إلى الكنود والتمرد فراح ينشر على صفحات بعض المجلات كلمات هي عصارة ذهن خرب، لعبت على مسرحه أباطيل عمر طويل وظل يكتب عاصفا بالأنوثة، هاتكا حرمتها، مشوها كرامتها، معتقداً أنها سبب هذا الانحلال الخلقي، طالبا من المجتمع، أن يبتدع شريعة تجيز مساواتها بالرجل في كل شيء حتى يسري عليها العقاب، إذا عصفت بقلب، أو أشقت رجلا عن طريق إغراء كذوب أو خداع مرغوب!

... ...

قد يكون لهذا الشقي العذر فيما ذهب إليه من آراء غريبة، لأن المرأة هي التي قذفت به من حالق في هذا الأتون المستعر، وقد لا يكون له أي عذر، لأنه لم يعرف كيف يوجه عاطفته، كما ترجو الأوضاع الصحيحة، ولم يدر كيف يمخر بسفينه في عباب الحياة!

لقد ظل الطائر يسف تارة، ويحلق أخرى، متنقلا من فنن إلى فنن، بين وهاد الحياة ونجادها، حزنها وسهلها وستمضي سنوه، وتعبره موجة الأيام، وهو كما هو " الطائر الحائر " الذي يضرب في مهمه هاته الحياة

بجناحين خفاقين حتى يشرف على الغاية ويبلغ النهاية، فيلقي عصاه ويستريح!

شكر

نشكر للأخوين النشيطين مصطفى ورياض محمد العادلي صاحبي مطبعة ومكتبة وادي النيل بميت غمر، ما لقيناه منهم أثناء طبع هذه القصة، من حسن المعاملة، والمحافظة على المواعيد، والعناية بنظافة الطبع، حتى خرجت القصة في هذه الحلة القشيبة بفضل مجهودهما المشكور.

المؤلفة



الغلاف الأصلي ١٩٣٥